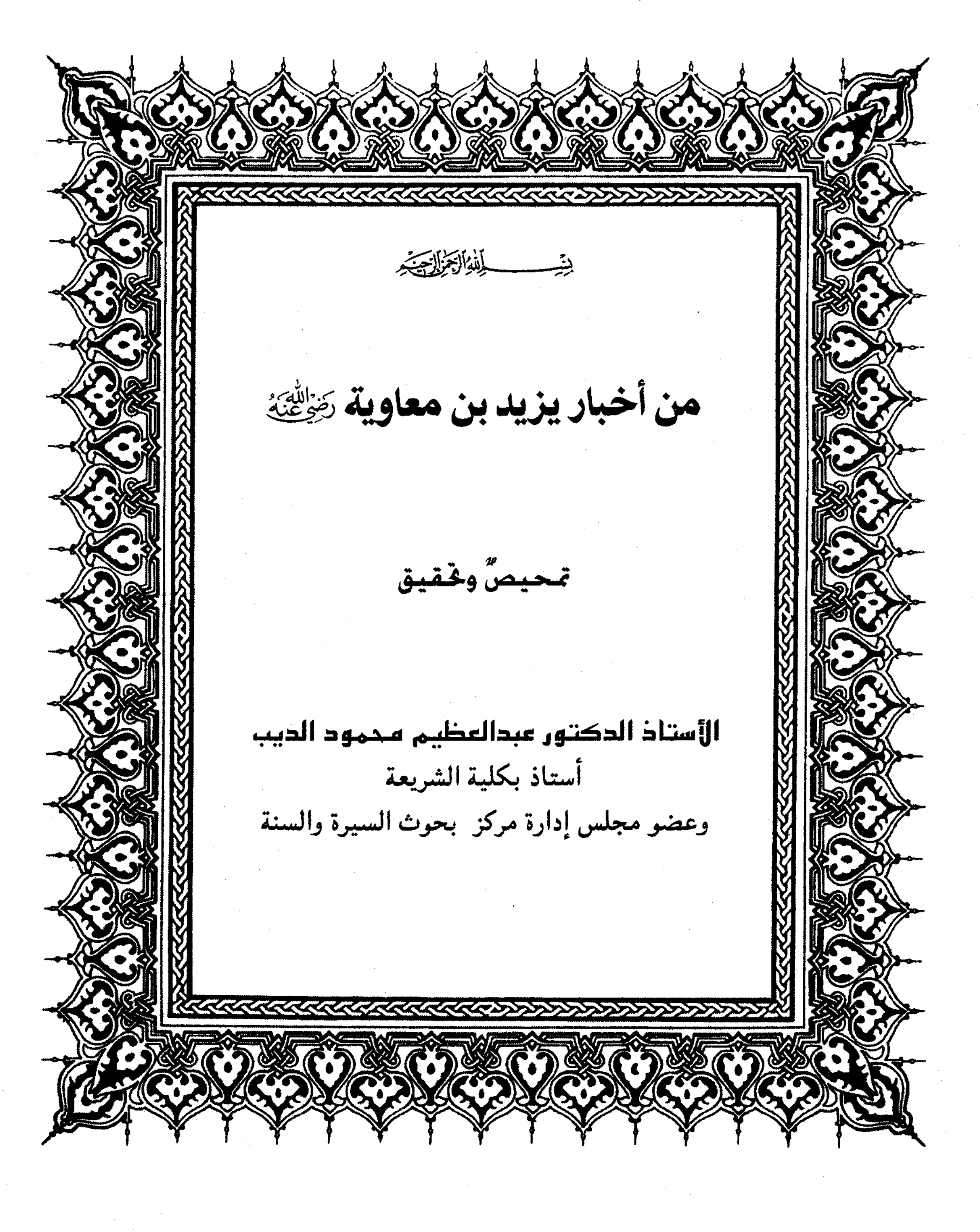


مجلة

مركز بحوث السنة والسيرة

العدد التاسع

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦-١٩٩٧م



بسم الله الرحمن الرحيم

من أخبار يزيد بن معاوية رضي الله عنه

تمحيصٌ وتحقيق

الأستاذ الدكتور عبدالعظيم محمود الديب
أستاذ بكلية الشريعة
وعضو مجلس إدارة مركز بحوث السيرة والسنة

هـذا البحـــث

في أصله رسالة مطوّلة ، أرسلها الباحث إلى الأستاذة الجليلة الدكتورة بنت الشاطئ - مدّ الله في عمرها ، ونفع بها - مراجعةً لها في بعض وقائع تاريخية، في مقالٍ لها نشرته بجريدة الأهرام وكان يأمل الباحث أن تنشر تصويبا لما قالته في ذات الصحيفة السيارة، فذلك أجدى وأنفع مهما كان موجزا. تمنى الباحث ذلك من الأستاذة الجليلة، ورجاها أن تفعل، من غير أن تشير إلى أن أحدا راجعها، أو كتب لها. وكان هذا حسْبه. كتب لها بذلك صراحةً.

ولكن الأستاذة الجليلة تفضلت بعد أكثر من عام، وأشارت إلى رسالة الباحث بالثناء والتقدير، ووعدت أن تعود إلى مناقشة مضمون الرسالة، وموضوعها. ثم مضى نحو عام - بل يزيد - ولم تتمكن الأستاذة الفاضلة من الوفاء بما وعدت. مما حدا بالباحث أن يتقدم بهذا البحث لنشره.

ويلاحظ القراء الكرام أن البحث متأثر من حيث شكله وبناؤه، بصورته الأولى، صورة الرسالة.

ثم أيضا

لايفوت المجلة أن تنوه بهذا الأسلوب السامي، والمنهج الأخلاقي، في الحوار بين الباحث والأستاذة الكبيرة، فذلك ميراثنا الأصيل من أئمتنا الأجلاء، الذي يبغي الجدلُ فيه الحقَّ وحده، في أسلوب هادئٍ نظيف، بعيدا عما نراه الآن من تحول الجدل العلمي، إلى ميدان قتال، تستخدم فيه قذائف الكلمات، وطلقات الألفاظ.

أسرة التحرير

مــدخـــل:

أ - لماذا هذا البحث؟

ب - مجال هذا البحث.

جـ - منهجنا في هذا البحث .

د - بين يدي البحث.

* * *

أ - كنت أتمنى أن أقول بقول أمير المؤمنين عمرَ بنِ عبدالعزيز ـ رضي الله عنه، حينما ذكرت عنده الفتنة وما شجر بين الصحابة رضوان الله عليهم، فقال: «تلك دماءٌ طهر الله منها أيدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا».

نعم.كنا نريد أن نأخذ بهذا الرأي، ونقول بهذا القول، ولكن كثر الحديث والكتابة حول هذه القضايا، في أيامنا هذه، فما من خطيب يخطب، أو محاضر يتكلم، أو كاتب يكتب، أو باحث يبحث، إلا وتجده يتكيء على نحوٍ ما على خبر من أخبار التاريخ الإسلامي، وبخاصة أخبار الفتنة، وأخبار الدولة الأموية، بل صار ذلك واردا في معظم المجالس، حينما يجدّ بها الجدّ، وتتجه إلى هموم الأمة ودواهيها.

ولعمري إن ذلك هو المنهجُ، فالأمم الواعية هي التي تُهرع إلى تاريخها تستلهم منه العبرة، وتستخرج منه العظة.

ولكن: للأسف نرى أننا لا نحسن قراءة تاريخنا، ولا نعرف تفسيره، بل لم نميّز زائفَ أخباره من صحيحها، للآن.

ولذا نجد العجب حينما يحاول من يحاول أن يعتبر بالآباء، وينسج على منوال الأجداد، نجد من يرتد فزعاً من روايات باطلة لا أصل لها، فيتخيل تاريخنا سلسلة من البطش، والقهر والطغيان، والفساد والإفساد، والعبث بأموال الأمة، ونهب أرزاقها، فيرى أن ما نحن فيه ليس إلا ثمرة طبيعية لتلك الشجرة العتيقة، المرة، وأن خلاصنا هو في الانفكاك من أسْر هذا الحصاد المر، بترك كل ما يتعلّق به، من قيم، وتقاليد، ومباديء، ومفاهيم، ومصطلحات، بل واللغة، والهجاء، أما الدين، «فيكفي أن يكون علاقة خاصة في قلب الفرد بينه وبين ربه إن أراد[1]».

(١) من كلام الأديب القصاص، الكاتب الشاعر، منظر الاشتراكية: عبدالرحمن الشرقاوي ـ غفر الله له.

نعم. يريد لنا هؤلاء ـ فزعاً من تاريخنا ـ أن نتبدل خلقا آخر، خُلقا، ولغة، ودينا. إن أردنا أن نقوم من كبوتنا، وأن نهب من غفوتنا ـ فتاريخنا لا يُنبيء بغير هذا.

وفريق آخر من أمتنا لا يقل عن هذا الفريق خللا وخطلا، ولكنه يتميز بالغرور والادعاء، وعنده مع ذلك خشية من الله ومعرفة بدينه، هذا الفريق يتفق مع الفريق الأول في قراءته للتايخ، وفي شعوره به، وفي نظرته له، وفي تقديره إياه، ولكنه لتمسكه بدينه، ومعرفته أن الدين هو الذي يصوغ المجتمع، ويعطي ثقافته روَحها، وقوتَها، ويعطي حضارته طابعها، وشكلها، ولونَها، وهو مصدر القيم، ومنبع الأخلاق ـ لعلْم هؤلاء بذلك، يقولون: «يجب أن نفصل بين الإسلام والمسلمين، فالإسلام هو الذي يحكم على المسلمين، وليس العكس، فالإسلام صالح لقيادة البشرية في كل زمان ومكان، ولكنه لم يحكم إلا برهة يسيرة هي عهد عمر بن الخطاب، والتماعة خاطفة في عهد عمر بن عبدالعزيز» ا.هـ كذا يقولون. ولا تسألني من هم؟ ولا أين قالوا؟ ومتى قالوا؟ فهذا ليس كلامَ فردٍ، أو عشرة، أو مائة، وإنما هي نظرية أو بديهية، يتكلم بها كثير مِّمن نطلق عليهم في هذه الأيام «الإسلاميين» الذين ينادون بالعودة إلى الإسلام، منهجًا ربانيا لإحياء الأمة، وإنقاذها.

ونقول: إن كان هؤلاء أهدى من الأولين سبيلا، من حيث استمسكوا بالإسلام دينا، ومنهجا، ورأوْه عصامَ هذه الأمة ومنقذَها ومحييها، ومخرجَها من الظلمات والتيه، والضياع والهوان، إلى النور والمعرفة، والمجد والعزة، وقيادة الإنسانية إلى الحق والعدل ـ فنَعَم.

ولكنهم أضل سبيلاً من وجهٍ آخر، حيث يخالفون بديهةَ العقل، ذلك أنهم بإقرارهم بعجز الأمة عن تطبيق الإسلام، ووقوعهم في عثمانَ، ومعاويةَ، ويزيدَ، وبني أمية، وبني العباس، ومَنْ بعدهم قد أقروا صراحةً وجزماً ويقينا بأنهم عاجزون عن تطبيق الإسلام، واتخاذه منهجا للحياة، وهذه بديهية لا تحتاج إلى دليل،ومن يطلب عليها دليلا، يقال له ما قيل من قديم:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل.

فهم لا ينكرون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم :«خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» فإذا عجز صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه «السابقون الأولون والذين ابتعوهم بإحسان» والذين عقد البخاري ومسلم أبوابا وكتبا فيما رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضائلهم ـ إذا عجز هؤلاء عن القيام بالإسلام وتطبيقه خير قيام، أليس عَجْزُ جيلنا ثابتُ بداهةً؟؟!!

وهذا الذي يقولون بجعلهم أهلا لصفتين: الغرور والجهل. أما الغرور، فعند تصور متصورّهم أنه قادر على ما عجز عنه الصحابة والتابعون وأهل القرن الأول، وأما الجهل،

فهو جهلهم بالتاريخ، بل بحقائق الأشياء وطبائعها . بل بالبديهيات التي لا ينكرها جاحد، ولا يردها مكابر، ذلك أن حضارة أمتنا أنارت الدنيا أكثر من ألف عام، لا ينكر ذلك برٌ ولا فاجر، ولا عدوٌ ولا صديق، فكيف تقوم حضارة، ويمتد ملك أطولَ من ألف عام إذا كان تاريخنا على ما عُلّمناه؟؟ من الظلم والقهر والعسف والفساد والإفساد؟ كيف؟؟

إننا نُردّد جملا أُلصقت بأسناننا، وملئت بها أفواهنا ـ على حد تعبير سارتر عن صنيع العرب بالأدمغة التي صنعت هناك ـ فلا نزال نتكلم بها، ولا نعرف المتكلم بغيرها.

ومن هنا أتهم العاملين في الحقل الإسلامي بالكسل العقلي، والعور العلمي، فقليلٌ منهم من تجرد للبحوث الجادة، ذات القيمة العلمية، التي تجلي حقائق الإسلام، وتدحض أباطيل خصومه، وهذا القليل اتجه جلُّه، بل أكاد أقول كلّه إلى جوانب التشريع والتقنين، وأحيانا العبادات، بحجة الاهتمام بالواقع، والتنظير للمستقبل ـ ولم نجد من اهتم الاهتمامَ نفسَه، أو بعضَه بقضايا التاريخ تمحيصا وتدقيقاً، وتخليصا لحقائقه من الزيف والتزوير والأكاذيب. ظانين ـ للأسف أن ذلك انصرافٌ عن الحاضر، ذاهلين عما قرره شرّاح الماركسية ـ من أهلها ونقادها ـ من أن سبب قصور النظرية وفسادها، جاء من أن ماركس فلسف تاريخاً غير صحيح، ولو وقع على التاريخ الصحيح، ما كانت هذه النظرية التي شقيت بها البشرية، وابتليت بها الإنسانية ثلاثة أرباع القرن.

ولذلك لا تعجب إذا سمعنا عالما جليلا ممن عاشوا حياتهم بطولها وعرضها لهموم هذه الأمة ولا يُغمط في خلق ولا دين، ولا علمٍ ولا فقه، ـ يقول: «كان حكم يزيد بن معاوية ثلاث سنين ، في الأولى قتل الحسين السبط الحبيب، وفي الثانية هتك حرمة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأباحها لجنوده: مالها ومتاعها ونساءها، وعذاراها، حتى ولدت خمسة آلاف عذراء «أي لغير أب» بعد تسعة أشهر من إباحتها، وفي الثالثة هدم الكعبة بالمنجنيق. والأدهى أن يخطب بذلك على المنبر».

وآخر لا يقل عنه فضلا ومكانة، يقول: «وقف معاوية (وأقول أنا رضي الله عنه) على المنبر، في المدينة المنورة بعد أن بث عيونه، وجلاوزته حول المسجد وعلى أبوابه، وفي داخله بين الصفوف وبأيديهم السلاح يومض كالبرق، ثم خطب فقال: «أمير المؤمنين هذا، وأشار إلى نفسه، فإن مات فهذا، وأشار إلى يزيد، فمن رضي فهذا، ونثر الذهب، فمن أبي فهذا، وأشار إلى سيفه ورفع جنودُه السلاح وهوّموا به فوق الرءوس!!!

قال: فلم يبق أحد إلا بايع ليزيد».

هذان مجرد نموذج، ولك أن تتأمل فيما بين يديك من كتابات، وتُصغى إلى ما تسمع

من محاضرات وندوات، لن تجد من يستشهد بمثالٍ، أو نموذج من غير عهد عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، إلا أقل من القليل وبهذه الموافقة الضمنية والصريحة على فشل المشروع الإسلامي منذ عهد عمر رضي الله عنه، أقول: بهذه الموافقة ضلَّ من ضلّ، وهلك من هلك، فكتابات علي عبدالرازق، وسعيد العشماوي، وفرج فودة، ومن لف لفهم ممن يقاومون الصحوة الإسلامية، ويقفون في وجه المشروع الحضاري الإسلامي، هذه الكتابات تجد سندها في التخويف من نماذج تاريخنا المشوه، والتبشيع «لجرائمه» وآثامه. ثم هي تتكئ اتكاءً واضحا على ما تقوله ألسنةُ أصحاب المشروع الإسلامي أنفسهم، وتكتبه أقلامُهم.

* * *

وبأدنى تأمل - بل بغير تأمل - يرى الإنسان أن هذا الأمر لم يعد خطأ علميا، أو خللا فكريا، يمكن بحثه ومراجعته، أو تصويبه ومناقشته، بل صار قضيّة تشكيلٍ للوجدان، وتوجيه للعواطف والانفعالات، صار بُغضا للتاريخ، ونفورا منه، يسيطر على المشاعر، ويثير الانفعال لأدنى ملابسة، ترى الكاتب يكتب في قضية آنية من قضايا يومه، فإذا به يوجه طعنة نجلاء لرجلٍ من رجالات تاريخنا، يُسقط ما في واقعنا في هذا الزمان الرديء - على تاريخنا الإسلامي، مما يشهد بما قلناه من أن الأمر لم يعد أمر أخبار وروايات تاريخية، صدقت أو كذبت، بل صار مسخًا للوجدان، وتشويها للعواطف، وهاك مثالا على ذلك:

كتب قلمٌ مسلم، نشهد له بالوعي، ونور البصيرة، وصدق البلاء في الدفاع عن الإسلام، وقضايا المسلمين في الداخل والخارج، والاستماتة في الدفاع عن المشروع الحضاري الإسلامي، كتب يدافع عن قضية المسلمين في الشيشان، ويصف ما حلّ بالعاصمة (جروزني)، فاستهل مقالة قائلا:

«حينما زرت العاصمة (جروزني) وجدت فيها بعضا من مشاهد يوم القيامة، وكل مشاهد مأساة كربلاء، فقد دكت الأرض فيها دكا، كما ورد في الوصف القرآني، لتجليات يوم الهول الأعظم، **وتعرض أهلها لمذبحة مروِّعة تماما كما حدث في كربلاء، مع الحسين بن علي وأهله وصحبه. نعم، ليس ثمة وجه شبه بين الإمام الحسين والجنرال (دودابيف). لكن الرئيس (يلتسين) في هذه المذبحة تقمص بامتياز شخصية الخليفة الأموي يزيد بن معاوية..»** ا.هـ بحروفه.

هكذا: «يلتسين تقمص بامتياز شخصية الخليفة الأموي يزيد بن معاوية»!!!

ما الذي جمع بين يلتسين ويزيد بن معاوية من وراء أربعةَ عشرَ قرنا من الزمان؟ ما

الذي استدعى «يزيدَ» لمحاكمته الآن؟؟ إنها العاطفة المتأججة بالبغض، والغيظ التي أشرنا إلى سيطرتها على مفكرينا ومثقفينا، وقادة الرأي فينا، ثمرةً لدراستنا الشوهاء لتاريخنا.

* ثم ألا يوحي ذلك بنوعٍ من التبرير أو التمرير لعمل «يلتسين»!! بمعنى أنه إذا كان فعل ذلك بمسلمي الشيشان، فهذا ليس بدعا، فقد فعله من قبله «خليفة المسلمين» بمن هم أفضل ألف مرة من مسلمي الشيشان!!!

* ومثال آخر أكبر دلالة، فإن كان هذا بقلم كاتبٍ صناعته الكتابة، ودراسته في القانون، وثقافته بالفكر الإسلامي، والقضايا الإسلامية بصفة عامة، فالمثال الآتي بقلم الدكتورة بنت الشاطيء، وهي من أهل «التحقيق» و«التدقيق» و«التوثيق» و«المنهج»، والتخصص والأستاذية في العلوم الإسلامية، ومع ذلك أيضا من أهل الصيانة والديانة، جاء في مقال لها بعنوان: «فجوات وأصداء في تاريخنا»، ما نصه:

«ويرتد الصدى إلى ماضٍ بعيد عبر **فجوة من غفلة الوعي الإعلامي والتوجيه المدرسي**، إلى يوم أحد قبل اثنتين وستين سنة، يصل ما بين مشهد يزيد بن معاوية في قصر دمشق عاصمة الدولة الأموية، قد أخذ مجلسه، ومن حوله كبار رجال دولته، مع عدد من وجوه القوم، دعاهم يزيد لحضور مجلسه في يومه ذاك، في انتظار وصول رأس الإمام الحسين بن الإمام علي، معه ابنه زين العابدين في نسوة آل البيت رضي الله عنهم، بعد المصرع الفاجع لسبط النبي صلى الله عليه وسلم، ومن شهدوا معه يوم كربلاء.. ووصل الركب الحزين، ووُضع رأس الإمام الشهيد أمام يزيد، فكشف عن وجهه، وأخذ ينكت في ثناياه بقضيب في يده، على مرأى من ابنه علي زين العابدين والنسوة من أهله، وهو ينشد في استشفاء متمثلاً بالقول المشهور لعبدالله بن (الزِّبَعْري) يوم أحد:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا .. جزع الخزرج من وقع الأسل

إذاً لأهلّوا واستهلّوا فرَحاً .. ثم قالوا: يا يزيد لن تشل»

ثم أشارت في المقال نفسه إلى (فجوة أخرى) «بين مشهد جدة يزيد (هند) بنت عتبة، إذ تقف على مصرع الفارس الهاشمي الشهيد (حمزة بن عبدالمطلب عم المصطفى جد الإمام الحسين، تبًّارك حربة (وحشي) وتعلو على صخرة مشرفة على مصرع الشهيد الهاشمي، بعد أن مثلت هي والنسوة اللواتي معها بجثته، وتصرخ بأعلى صوتها.. نحن جزيناكم بيوم بدر.. إلخ وصدى هذا المشهد في قصر الخلافة في دمشق بعد اثنتين وستين سنة» أ.هـ.

* * *

تأمل هذه العاطفة الملتهبة، بهذا التصوير الأدبي المجسم، الذي يستحضر المشهد

الحزين، وكأنك تراه رأي العين وتلمسه بيدك.

ثم تأمل ما هو أخطر من كل ذلك العتبَ القارص واللومَ الجارح لإعلامنا، ومناهج تعليمنا المدرسي، لغفلتها، وغياب وعيها، إذْ لم تستطع أن تُحيي «هذه المشاهد» مشهد يزيد في قصره، ورأس الحسين بين يديه...!!! ومشهد هند وهي تبارك حريةَ «وحشي» وتأكل كبد حمزة رضي الله عنه، وتشمت بالمسلمين يوم أحد!!!.

تأمل!!!

كأنه مطلوب من إعلامنا ومدارسنا المزيد من تشويه وتزييف التاريخ!!!

* * *

من أجل هذا كانت محاولتنا هذه ـ وغيرها ـ لتمحيص بعض قضايا التاريخ، فنحن لا نركب الصعب بترك ما نحن فيه من عمل، والانغماس في هذه القضايا، إلا دفاعاً عن «عِرضِ أمتنا» وتطهيراً له مما قُذف به بالباطل.

وأستطيع أن أجزم بأن أول الشروط الغائبة من شروط نهضتنا، هو: «عدم التعرف الاستيعابي على ماضينا ودورتنا الحضارية». وكم أتمنى أن يعي الإسلاميون، مفكروهم ومنظّروهم خطورة هذا الخلل في ثقافة الأمة ووعيها.

* * *

ب - مجال هذا البحث:

كان الدافع المثير والسبب المباشر لهذا البحث، هو المثال الأخير الذي ذكرناه آنفاً عن يزيد وجدّته هند. ولذا حصرت هذا البحث في المجالات الآتية:

١ - يزيد وكربلاء، وبتعبير آخر: يزيد ومقتل الحسين رضي الله عنهما.

٢ - الطلقاء ومسلمة الفتح.

٣ - يزيد ووقعة الحرة.

٤ - خاتمة في معنى التاريخ، مع موازنة بين تاريخنا، وتاريخ الغرب.

٥ - وفي ثنايا ذلك إشارات وتعليقات على بعض ما جاء في المقال «فجوات وأصداء».

* * *

جـ - منهج البحث:

يقوم هذا البحث على نقد الأخبار والروايات وبيان صحيحها من سقيمها، وذلك

عن طريق نقد السند، ونقد المتن أيضا، وعرضه على المعقول والمقبول، ومن هنا قد نرّد سندا معينا في واقعةٍ، ونقبله في واقعةٍ أخرى، ذلك أنّا نرّد سند الراوي المجروح المتهم حينما يروي ما يسيء إلى خصومه، في مقابلة راوٍ أثبت منه يدفع هذه الإساءة. ولكننا نقبل رواية هذا الراوي حينما تكون في جانب خصومه، من باب: «نقبل اعترافه، ونرفض شهادته» أو من باب: «والفضل ماشهدت به الأعداء».

* كما يقوم منهجنا على التحليل والاستنتاج، من مجموع الوقائع والأحداث الثابتة ومدلولاتها.

د - بين يدي البحث:

وأحب أن أقدم بين يدي هذا البحث أصولاً وضوابطَ. منها:

- إننا لا ندافع عن يزيد، ولا غير يزيد، ولا ندعي أنه معصومٌ من الخطأ، لا هو ولا أحد من البشر، إلا من وجبت له العصمة شرعاً وعقلاً من رسل الله عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

- كما أننا - حاشا لله - لا ندخل في هذه القضية، انتصاراً لمذهب، أو تعريضاً بمذهب، فكم نتمنى أن تجتمع كلمة الأمة كلها، كل أهل القبلة، كل من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، كم نتمى أن تصحو الأمة الإسلامية، كل الأمة الإسلامية، لتدرك ما يراد بها، ولتحمي كينونتها ووجودها. فنحن فعلاً في منعطف من التاريخ إما أن نكون أو لا نكون. والأمل في الله وحده، ثم في وحدة كلمة الأمة.

- أن حبنا - كل المسلمين - للحسين - بأبي هو وأمي بالناس أجمعين - وكل آل البيت لا يحتاج إلى كلام، وهو لا يقل أبداً عن حب الذين يشوهون تاريخنا، ويحملون على دولة بني أمية التي طهرت المشرق والمغرب، من طغيان الفرس والروم، وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة الواحد الأحد. وإن كنا نقول: وا أسفا على ما أصاب الأمة مرّة، فنحن نقول: واأسفا على ما أصاب الحسين ألف مرة.

- إن صاحب هذا القلم رضع لبان هذا الحب منذ كان في المهد صبياً، حيث عرف أنه من هذه العترة الطاهرة، وسمع تاريخها، وأحاديث وقائعها، ومقاتلها، قبل أن يُمسك قلماً أو يخط حرفاً، فكانت فجيعته في الحسين الشهيد مضاعفة، ونشأ على الصغر يبكيه.

- وقد شاء لنا القدر أن نكون من طلبة العلم، وخَدَمَة الفقه والأصول، ثم قُدّر لنا أيضاً أن نعيش مع أئمتنا الأقدمين، نعكف على تراثهم، ونتتلمذ عليهم، ونصغي إليهم، ونسمع لهم ونحن نعالج المخطوطات - التي نحققها - من ذخائر تراثنا وكنوزه،

فتعلمنا ـ مع ما تعلمناه من الصبر والدأب في البحث عن المخطوطات في مظانها، والصبر على قراءتها، وفك رموزها، والمقارنة بينها ـ تعلمنا مع هذا شيئاً من المنهج، وأن من أسند لك فقد حمّلك، وأن أئمتنا العظام، دوّنوا ما سجلوه من مدونات تاريخنا، على نحو ما أدي إليهم، لا إيماناً بكلّه، ولا تصديقاً لجميعه، وإنما التزاماً بأمانة الرواية، أن يؤدي إليك، كل ما سمعه، وليس عجزاً عن النقد، أو غفلة عن ضعف الروايات، أو فسادها، كما يتطاول بذلك بعض جهابذة هذا الزمان.

وقد عبر عن ذلك شيخ المؤرخين الإمام الطبري بقوله في مقدمة كتابه: «.. وما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يُؤت في ذلك قِبَلنا، وإنما أُتي من قِبَل بعض ناقيله إلينا، وأنَّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدّي إلينا».

وبمثل هذا كتب ياقوت الحموي في مقدمة كتابه (معجم البلدان) الذي يحق لأمتنا أن تفاخر الدنيا به وبمؤلِّفه ـ فقد كان مؤلفه رقيقاً عتيقاً (ويزعم المنورون من مزيِّفي المثقفين أن أوربا هي التي حررت الرقيق).

قال ياقوت «.. لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر عنها طباع من له محصول، لبعدها عن العادات المألوفة، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة.. وأنا مرتاب بها، نافر عنها، متبريء إلي قارئها من صحتها، لأني كتبتها حرصاً على إحراز الفوائد، وطلباً لتحصيل القلائد منها والفرائد، فإن كانت حقاً، فقد أخذنا منها بنصيب المصيب، وإن كانت باطلاً، فلها في الحق شِركٌ ونصيب، لأنني نقلتها كما وجدتها، فأنا صادق في إيرادها، كما أوردتها، لتعرف ما قيل في ذلك حقاً كان أو باطلاً، فإن قائلا لو قال: سمعت زيداً يكذب، لأحببت أن تعرف كيف كذبه».

ثم استظهر على هذا بما كان من أئمة الحفظ والرواية فقال: «وها أئمة الحفاظ الذين هم القدوة في كل زمن، وعليهم الاعتماد في فرائض الشرع والسنن، لم يشترط أكثرهم في مسنده، وهي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي تبتنى عليها الأحكام، ويفرق بها بين الحلال والحرام، إيراد الصحيح دون السقيم، ونفي المعوج وإثبات المستقيم، ولم يخرجهم ذلك عن أن يُعدّوا في أهل الصدق، أو يتزحزحوا عن مراتب الأئمة والحق، إنهم أوردوا ما سمعوه كما وعَوْه، وإنما يسمَّى كذابا، إذا وضع حديثاً، أو حدَّث عمن لم يسمع منه، أو روى عمن لم يرو عنه، أما من يروي ما سمع كما سمع، فهو من الصادقين والعهدة على من رواه عنه». أ.هـ.

* * *

ومراجعتنا لما أشرت إليه من (فجوات وأصداء) تتناول القضايا الآتية:

أولا: موقف يزيد من مأساة كربلاء

إن حمل الرأس إلى يزيد، ونكته بالقضيب في ثناياه، وتمثله بشعر ابن الزِّبَعْرى، باطل لا أصل له، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، باطل بنقد السند، وبنقد المتن [منهاج السنة: ٤/٤٧٢، ٤/٥٥٧].

بل هذا الخبر أوهى من خُرافة تلك (النَّخْرة) المشهورة لسُكينة بنت الحسين، وقد تصدّيتِ لها بالتفنيد الذكي، بنقد المتن، ومقابلة الروايات عن حياء سُكينة رضي الله عنها، حتى من زوجها، (سمعت ذلك منك بأذني).

وأنت يا سيدتي صاحبة ذلك القول: «إننا في حاجة مؤكدة إلى إعادة النظر في تاريخنا المدوّن، تنقيةً له من شوائبَ مقحمةً على مرويات رددتها الأجيال من المؤرخين ورسخها التواتر، حتى صارت من المسلمات التي لا يتعلق بها أي شك».

نعم. هناك روايات (كتاب الأغاني) الذي أسميه أنا: (النهرَ المسموم) ذلك النهر الذي عب منها كل مثقفينا، وكل من تناول جانباً من تاريخنا، كابراً عن كابر، فضلوا وأضلّوا.

والأدلة الدامغة على بطلان هذه الفرية كثيرة منها:

- إن هذه الرواية تحمل في ثناياها دليل بطلانها، وآية فسادها، فهي باطلة ببديهة العقل، **فإن أحدا من الأنصار - بإجماع المؤرخين - لم يشهد معركة كربلاء**، فكيف يتصور من يزيد - المعدود من خطباء العرب وفصائحهم - أن يتمثل بهذه الأبيات التي تتشفى من الخزرج ولا خزرج هنا؟

ولكن هكذا دائماً - على طول التاريخ - صُنَّاع الأكاذيب، مهما أحكموا صنعتهم يفضحون أنفسهم، ويتناقضون من حيث لا يشعرون.

- ثم إن الإمام الحافظ ابن كثير - بعد ما أورد في (البداية والنهاية) جلّ ما روى عن هذه الداهية، مما رواه أبو مخنف وغيره، ترجح لديه براءة يزيد، إذ قال: «والذي يغلب على الظن أن يزيد بن معاوية، ما رضى بقتل الحسين، وما علم به، ولو قَدَرَ عليه قبل أن يقتل، لعفا عنه، وأنه لعن ابن زياد على فعله ذلك، وشتمه فيما يظهر ويبدو، ولكن لم يعزله على ذلك، ولا عاقبه، ولا أرسل يعيب عليه ذلك» أ. هـ بنصه ٨/٢٠٢، ٢٠٣.

وقد بريء الحافظ بُن كثير من عهدة هذه الروايات التي أوردها، فقال:«ولولا ان ابن جرير وغيرَه من الحفاظ والأئمة، ذكروها ماسقتها، وأكثرها من رواية أبي مخنف لوط بن يحيى، وقد كان شيعيا، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة» (البداية:٨/٢٠٢).

ـ وهذا الراوي (أبومخنف) قال فيه الذهبي: «إخباري تالف» وقال فيه ابن عدي:«شيعي محترق صاحب أخبارهم» (ميزان الاعتدال:٣/٤١٩ ـ ٤٢٠).

ـ بل إن ابن زياد نفسَه ـ وهو الذي باء بها وحده ـ ندم على ذلك أيضاً أشد الندم، وكأنه حاول أن يمحو ما يثبت عليه ذلك، فقد روى هشام عن عوانة قال: قال عبيدالله بن زياد لعُمرَ بن سعد بنِ أبي وقاص (قائدِه الذي قاتل الحسينَ وقتله) أين الكتاب الذي كتبتُه إليك في قتل الحسين؟

(يريد الكتاب الذي أمره فيه بعدم إعطاء الحسين واحدة من الثلاث التي طلبها، وضرورة المجيء به إلى ابن زياد، مما ألجأ الحسين إلى القتال، وإلى ما كان).

فقال عمر بنُ سعد: «مضيتُ لأمرك، وضاع الكتاب».

فقال له ابن زياد: «لتجيئن به»!!

فقال له عمر بن سعد: «ضاع».

فقال له ابن زياد: «والله لتجيئن به».

فقال له عمر بنُ سعد:«تُرك والله يقرأ على عجائز قريش، أعتذر إليهن بالمدينة»!! وأما والله لقد نصحتك، نصيحة، لو نصحتها إلى سعد بنِ أبي وقاص (أي أبيه)، لكنت أديت حقه».

(يريد عمر بن سعد بن أبي وقاص بهذا أن يعلن براءته من قتل الحسين رضي الله عنه، وأنه كان مجرد آلة في يد أميره وقائده زياد، ويذكّر زياداً بأنه لم يقصر في نصحه نصيحة لو نصحها لوالده سعد بنِ أبي وقاص، لما ضيعها).

ـ وهنا قال عثمان بن زياد ـ أخو عبيد الله بن زياد ـ :«صدق والله عمر، ولوددت، والله أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خِزامة إلى يوم القيامة وأن حسينا لم يقتل!!

«يقال: جعل في أنف فلان خزامة، أذله وسخرّه» . المعجم الوسيط. (أي أنه يفضل أن يكون آل زياد جميعاً مستذلين مسخرين، وأن أخاه لم يقتل الحسين).

قال عوانة (الراوي): فوالله ما أنكر عليه عبيد الله بن زياد: البداية ٨/٢٠٨).

والذي يظهر جلياً من هذا الحوار، هو ما نؤكده، من أن يزيد بن معاوية، لم يأمر بقتل الحسين، ولم يعلم إلا بعد ما كان، وإلا لاعتذر ابن زياد، بأنه كان مأموراً من يزيد، كما اعتذر عمر بن سعد بن أبي وقاص، بأنه كان مأموراً من ابن زياد.

بل يشهد على براءة يزيد من دم الحسين، وأنه لم يكتب فيه بالفعل لابن زياد، ما رواه الطبري عن أبي مخنف، أن يزيد كتب إلى عبيد الله بن زياد يقول له ما نصّه: «... وإنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر، والمسالح، واحترس على الظن، وخذ على التهمة، غير ألا تقتل إلا من قاتلك، واكتب إليّ في كلّ ما يحدث من الخبر. والسلام عليكم ورحمة الله» ا.هـ [٥/٣٨١].

جاء هذا الكلام في ذيل خبر طويل عن أبي مخنف يَظهر فيه تحامله على يزيد كل التحامل، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يزعم أن يزيد كتب إلى ابن زياد يأمره بقتل الحسين ومن معه.

وهذا يؤكد صحة الرواية التي تقول: إن يزيد حزن لمقتل الحسين، وبكى واسترجع، وقال: لعن الله ابن مرجانة (ابن زياد) كنت أرضى من طاعته بدون هذا.

وأن آل الحسين ـ رضي الله عنهم ـ لما جاءوا إلى دمشق أحسن يزيد استقبالهم «وأنزل النساء عند حريمه في دار الخلافة، فاستقبلهن نساء آل معاوية يبكين، وينحن على الحسين، ثم أقمن المناحة ثلاثة أيام، وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا ومعه علي بن الحسين، وأخوه عمر بن الحسين، فقال يزيد يوماً لعمر بنِ الحسين ـ وكان صغيراً جداً ـ :أتقاتل هذا؟ (يعني خالد بن يزيد بن معاوية) يريد بذلك ممازحته وملاعبته، فقال: أعطني سكيناً، وأعطه سكيناً حتى نتقاتل. فأخذه يزيد وضمه إليه، وقال شنشنة أعرفها من أخزم، وهل تلد الحية إلا الحية؟ (الأمثال لا تغيّر كما هو معروف مقرر).

ولما ودعهم يزيد قال لعلي بن الحسين: قبح الله ابن سمية، أما والله لو كنت صاحب أبيك ما سألني خصلة إلا اعطيته إياها، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت، ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى ما رأيت!!

ثم جهزه ، وأعطاه مالاً كثيراً وكساهم وأوصى بهم، وقال: كاتبني بكل حاجة تكون لك» (البداية والنهاية: ٨/ ١٩٥).

أليست هذه الرواية هي الأقرب والأشبه بأخلاق وسيرة كرام العرب، وخيارهم في

الجاهلية والإسلام؟ فلماذا نغض الطرف عنها، ونطير فرحاً بالأخرى؟؟!

- بل يستطيع الباحث أن يؤكد صحة هذه الروايات، بل يصل بها إلى القطع واليقين إذا وضعنا أمامنا، ما رواه البخاري ومسلم وأبوداود، وأحمد في المسند (واللفظ للبخاري) عن علي بن الحسين (زين العابدين) أنهم حين قدموا المدينة من عند يزيد بن معاوية، مقتلَ الحسين رحمة الله عليه - لقيه المِسوَرُ بنُ مخرمة، فقال له: هل لك إليّ من حاجة تأمرني بها؟

فقلت له لا!!

فقال: فهل أنت معطيّ سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإني أخاف أن يغلبك القوم عليه، وايمُ الله لئن أعطيتنيه لا يخلص إليهم أبداً حتى تبلغ نفسي». (البخاري: كتاب فرض الخمس - باب ٥، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة - حديث رقم ٩٥، وأبوداود: كتاب النكاح، باب رقم ١٣، ومسند أحمد: ٣٢٦/٤).

ففي هذا الحديث الذي بلغ الغاية في الصحة دلالةٌ بطريق الالتزام - كما يقول علماء الأصول - على أن سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع علي بن الحسين منصرفَه من عند يزيد، ومعنى هذا أن آل الحسين رضي الله عنهم، لم يسلبوا، ولم ينهبوا، ولم يطوفوا بهم سبايا وأسارى، كما زعم الكذابون الخراصون!! كيف وفتى بني هاشم علي زين العابدين، مازال متشحاً بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأي سَلْبٍ؟ وأي نهب؟ وأي أسر؟ وأي سبى؟؟ وأي تشفٍّ؟ وترداد لأصداء أحد؟؟

- وبعد كل هذا نستطيع أن نزيد هذه الرواية وهاء وسقوطاً، إذا قلنا: إن يزيد بن معاوية سمى ولدين له بأبي بكر وعمر!! وهما شيخا بدر، فكيف يجتمع في قلب يزيد حب الشيخين، ويسمي ولديه باسمهما، ويتيمن بترديد ذكرهما في بيته، كيف هذا مع (الإحن البدرية) والتشفي بشعر الجاهلية؟؟!!

هذا عن هذه الرواية وقيمتها.

* * *

والمنهج المدرسي؟

على فرض أن هذه الرواية صحيحة، وثابتة لا يرقى إليها أدنى شك، فكيف تريدين لها أن تجد طريقها إلى (منهجنا المدرسي) وإلى (إعلامنا إذا كان يريد أن يصحو)؟ سبحان الله!! أما كفانا من خزعبلات هذا الإعلام الغافل الذي قلتِ عنه: إنه

(يبشر فينا ببرج بابل عصري)!!

أما كفانا ما خطه (دنلوب) لمناهج تعليمنا من ازدواجية شوهاء، ومن تغييب لوعينا عما أريد ، ويراد لنا، ومن بعثرة لرؤيتنا ، وتمزيق لذاكرتنا، وتشويه لوجداننا، وتشكيل لعواطفنا، ثم ها قد جاء المركز الأميركي لتطوير مناهج تعليمنا، هدية مجانية من أمريكا، سيد العالم الجديد، جاء هذا المركز ليكمل ما بدأه (دنلوب) وليجهز على ما بقي لنا من صلة بماضينا، أو اعتزاز بتراثنا، أو وعي بتاريخنا، وليتربص بكل نبتة نشأت هنا أو هناك، أو بادرة ظهرت هنا أو هناك متحدية (دنلوب) الأصيل، كافرة به و(بالدنالبة) الأتباع، «وبالعصبة التنويرية التي تفرض هيمنتها الإرهابية على مناخنا الفكري ، وتعمل على تطهيره من طابع الإسلامية وسماتها، وتتداعى لتنوير عصري، يطمس ملامح الشخصية الأصيلة لأمتنا على مذهب (يعقوب صروف) وحوارييه وتلاميذهم ورثة تعاليم مدرسته».

جاء هذا المركز هدية إلينا، ليساعدنا على التغيُّر، ويأخذ بيدنا (في عالم متغير)، ليخرجنا من «مجتمع ديني رئيس الدولة فيه يحمي الدين، ويحمي الكلاسيكية، اللغة فيه ليست لغة الديمقراطية والمخترعات الحديثة، بل هي لغة القرآن وتقاليد العرب.. ليخرجنا إلى مجتمع يعيش العيشة العلمية، حيث تستند الحقائق إلى البينات لا إلى العقائد، وتكون لغتنا كوكبية، وكتابتنا لاتينية.. حتى يزول هذا الانفصال النفسي الذي أحدثته الكلمتان المشئومتان (شرق وغرب)[1]..».

أما كفانا هذا!!

والله لو عثر سماسرة هذا المركز الأمريكي، على هذه الصورة المسرحية المأساوية لمجلس يزيد في قصر الخلافة، يعبث برأس الحسين الشهيد، لو عثروا على هذه الصورة، لعدّوها هدية الموسم، وأفضل ما ساقته الأقدار إليهم[2]، ـ من (البضاعة الحاضرة)، ولوجدت هذه الصورة مكانها في كتب التاريخ، بديلا لغزوات المصطفى صلى الله عليه وسلم، وحروبه مع يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني المصطلق، وفي خيبر، تلك الغزوات التي حذفت جهاراً نهاراً (على المكشوف)، فلتكن أصداء أحد في قصر الخلافة في دمشق هي البديل (العصري)!!

أما كفانا تلك الصورة المسرحية الخبيثة في مناهجنا، عن قضية التحكيم، بين علي

---

(١) من كلام «سلامة موسى» أحد (الشوامخ) وأحد (أعمدة التنوير) الذي أريد بنا ولنا.
(٢) إن كانوا يؤمنون بالأقدار!!!.

ومعاوية، تلك الصورة التي عبثت بعقولنا، وصورت شيخين جليلين بصورة شوهاء، إذ جعلت أحدهما ثعلباً ماكراً خبيثاً خائناً مزيفاً، وجعلت الآخر، مغفلاً أبله، ولا وعي له.

أما كفانا هذا ؟!!

أخبارٌ وأخبار:

ثم هل تريدين لمنهجنا المدرسي ولإعلامنا (الصاحي) أن يقدم هذا وحده فقط عن يزيد؟؟ ولماذا هذا وحده؟

لماذا لا تقدم مناهجنا المدرسية، وإعلامنا - عندما يصحو - ما هو أصح وأثبت من أخبار يزيد؟ من مثل:

١ - ما صح في كتاب أمتنا الثاني (صحيح البخاري) من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة القيصر مغفور لهم» وقد صح في البخاري أيضاً، بل صار معروفاً بالتواتر أن يزيد بن معاوية رضي الله عنه هو الذي كان على رأس هذا الجيش (البخاري : كتاب الجهاد، وكتاب التهجد) وأن هذا الجيش كان فيه من جلّة الصحابة أمثال أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير، فكيف رضي هؤلاء الصحابة العظام رضوان الله عليهم، وكيف رضي أبناؤهم أن يؤمّر عليهم مثل يزيد، لو كان كما تقوّل عليه المتقوّلون (يزيد كلاب وقرود) ؟.

٢ - وما صح في البخاري أيضا من أن يزيد كان من تلاميذ عبدالله بن مسعود وشهود حلقته، بل كان من أدنى أصحابه وخواصهم. (البخاري كتاب الدعوات).

٣ - وما صح في البخاري أيضاً من أن عبدالله بن عمر - وهو مَنْ هو - وصف الخروج على يزيد بأنه غدر، وأنذر الخارجين عليهم بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُنصب لكل غادر لواءٌ يوم القيامة».

ونص ما رواه البخاري: «لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع عبدالله بن عمر، حشمه وولده، فقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يُنصب لكل غادر لواء يوم القيامة. زاد في رواية عند أحمد في مسنده: «بقدر غدرته، يقال هذه غدرة فلان».

وإنا قد بايعنا هذا الرجل (يزيد) على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسول ثم ينصب له القتال.

وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر، إلا كان الفيصل بيني وبينه».

وروي مسلم نحو هذا أيضا عن نافع عن ابن عمر، فهو في غاية الصحة (متفق عليه) (البخاري: كتاب الفتن، ومسلم: كتاب الإمارة، ومسند أحمد:٤٨/٢).

٤ - ما روي عن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما حين أرادوه على أن يخلع يزيد، فأبى عليهم، وقال: والله ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته، وأقمت عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنة» ثم قال لمن يحرضونه: «لست من أمركم في شيء، ولا أستحل القتال، لا تابعاً ولا متبوعاً» (البداية والنهاية لابن كثير: ٢٣٣/٨) (وهذه شهادة ابن علي بن أبي طالب، وكان ممن قاتل معاوية مع أبيه، فأحرى به أن يكون عدواً له كارهاً لملكه وولده).

ومع أن هذه شهادة قاطعة، بعدالة صاحبها وصلاحه، وكونه فوق مستوى الشك والتهم. ثم بكونها عن عيان ومعايشة، إلا أن صناع الأكاذيب أسرفوا على أنفسهم وعلينا، فاخترعوا قصصاً للهو يزيد، وعبثه ومجونه لا يقبلها عقل عاقل: من مثل: «أنه كان له قرد دربه على ركوب البرذون والمسابقة عليه، وذات يوم وقع هذا القرد من على (البرذون) (نوع من الفصيلة الخيلية كالبغال)، فمات، فحزن عليه يزيد، ودفنه في مقابر المسلمين، وجلس للعزاء فيه ثلاثاً»؟

انظر!! واعجب!! ثم اسأل: هل يعقل أن يموت القرد إذا سقط عن (البرذون)؟ إنه القرد!!

- ولما وجد خبثاؤهم أنهم صاروا مفضوحين، اخترعوا رواية أخرى فيها شيء من (الحبكة) الفنية حتى تجوز على العقول، فزعموا: «أن معاوية رضي الله عنه كان غير راض عن لهو يزيد وفسقه، وشربه، وأكثر من نصحه فلم ينتصح، فقال - لما يئس من استجابته: إذا عليك بالليل، استتر به عن عيون الناس، وإني منشدك أبياتاً، فتأدب بها، واحفظها، فأنشده:

انصب نهاراً في طلاب العلا .. واصبر على هجر الحبيب القريب

... ... إلى آخر الأبيات.

كذا قال الكذابون الدهاة، ولكن فضحهم الله، فهذه الأبيات لم يقلها معاوية رضي الله عنه، ولم تكن قيلت بعدُ، ولا علاقة لها بمعاوية، ولا بيزيد، ولا يعرفها أهل البصر

بهذا الفن، إلا ليحيى بن خالد البرمكي، أي الذي عاش زمن هارون الرشيد، أي بعد معاوية وابنه بنحو مائة عام. (انظر الموضوعات لابن الجوزي: ٣/٢٧٨).

وللأسف صار كثير من هذه المخترعات المفتريات بديهيات، ووجدت مكانها على ألسنة (الأكاديميين) وأقلامهم وعشعشت هذه الخرافات في الأبحاث والرسائل العلمية والمكتبات الجامعية المتخصصة.

٥ - ما روي عن ابن عباس حين جاء الخبر بنعي معاوية رضي الله عنهم، إذ وجم طويلاً، ثم قال: «رحم الله معاوية، أما والله ما كان مثل من قبله ولا يأتي بعده مثله، وإن ابنه يزيد من صالحي أهله، فالزموا مجالسكم وأعطوا طاعتكم، وبيعتكم (البلاذري - ترجمة يزيد - عن شيخي الأستاذ محمود محمد شاكر - مجلة المسلمون <الشهرية> العدد الرابع صفحة ٤٢) جمادي الآخرة ١٣٧١ فبراير ١٩٥٢» (وابن عباس أعلم قريش بقريش، ثم هو من آل البيت) وكان أولى بخلع البيعة - لو وجد لها وجهاً. فإن ابني أخيه عبيدالله قد قتلا في الفتنة بين علي ومعاوية، رضي الله عنهم جميعاً، فإذا شهد ليزيد بأنه من «صالحي بني أمية أو بني معاوية» فأين نذهب بشهادته؟!!

٦ - ما نقله الحافظ ابن كثير عن الإمام المدائني أن ابن عباس رضي الله عنهما، لما وفد إلى معاوية بعد وفاة الجسن بن علي (رضي الله عنهم) فدخل يزيد وجلس منه مجلس المعزي، (يعزيه في الحسن بن علي)، فلما نهض يزيد من عنده، قال ابن عباس: «إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس» (البداية والنهاية: ٨/٢٨٨).

٧ - ولم لا نقدم (لمناهج مدارسنا)، وأجهزة التوعية في إعلامنا (الصاحي)، أن أحمد بن حنبل عدّ يزيد بن معاوية من الزهاد، فقد روى عنه في كتابه (الزهد) أنه كان يقول في خطبته: إذا مرض أحدكم مرضاً فأشفى (أي قرب من الموت) ثم تماثل، فلينظر إلى أفضل عمل عنده، فليلزمه، ولينظر إلى أسوأ عمل عنده، فليدعه»، هذا ابن حنبل إمام السنة يدخله في جملة الزهاد الذين يقتدى بقولهم، ويهتدى بوعظهم!! (العواصم من القواصم: ٢٣٣).

وقد دوّن أئمة السنة أحاديث «رووها عن يزيد عن أبيه منها الحديث المشهور: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وحديث آخر في الوضوء، وروى عنه ابنه خالد، وعبدالملك بن مروان، وقد عدّه أبوزرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة، وهي الطبقة العليا» (ابن كثير - البداية والنهاية: ٨/٢٦٦، ٢٢٧).

٨ - وكيف لا نقدم لهم كل أخبار المأساة المشئومة ليعلموا أن الحسين السبط

الحبيب، رفض مشورة أخيه محمد بن الحنفية (الطبري: ٣٤١/٥) وابن عم أبيه حبر الأمة عبدالله بن عباس (الطبري: ٣٨٣/٥ ـ ٣٨٤) وابن عمه عبدالله بن جعفر بن أبي طالب (الطبري:٣٨٨/٥) وقد بلغ الأمر بعبدالله بن جعفر أن حمل والي يزيد على مكة أن يكتب للحسين كتاب الأمان، ويُمنّيه فيه البر والصلة، ويسأله الرجوع، فقال له والي مكة (عمرو بن سعيد بن العاص): اكتب ما تشاء، وأنا أختم الكتاب، فكتبه وختمه، وبعث به الوالي إلى الحسين مع أخيه يحيى بن سعيد بن العاص، ليكون أحرى أن تطمئن نفسه إليه، وذهب عبدالله بن جعفر مع يحيى، وجهدا بالحسين أن يثنياه عن السفر، فأبى، وكان مما جاء في كتاب الأمان: «.. أما بعد، فإني أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك،.. وأني أعيذك من الشقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبدالله بن جعفر ويحيى بن سعيد، فأقبل إليّ معهما، فإن لك عندي الأمان، والصلة والبر، وحسن الجوار لك، الله عليّ بذلك شهيد وكفيل، ومُراعٍ ووكيل، والسلام عليك (الطبري:٣٨٨/٥).

كما رفض الحسين نُصْح عمر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، والحارث بن خالد بن العاص بن هشام (الطبري: ٣٨٢/٥) بل إن عبدالله بن مطيع داعية ابن الزبير قد أخلص له النصح، وتوسّل إليه ألا يخرج إلى العراق (الطبري:٣٥١/٥).

٩ - ألا يمكن أن نقول في مناهج تعليمنا، وفي وسائل إعلامنا ـ إن كان لابد أن نقول ـ ما قاله الإمام الجليل، أبوبكر بن العربي: «إن الذين قاتلوا الحسين (رضي الله عنه) ما قاتلوه إلا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل (صلى الله عليه وسلم) المخبر بفساد الحال، المحذّر من الدخول في الفتن!! وأقواله في ذلك كثيرة، منها قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان» فما قاتله من قاتله إلا بهذا وأمثاله» (العواصم من القواصم:٢٣٢) وانظر أيضاً البداية والنهاية:٢٠٢/٨) أليس هذا من الممكن أن يقال؟

(وإن كنت أنا غير قائل به، بل ما أدين الله به، أن ابن زياد أخطأ، وما كان له قتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان عليه أن يعطيه واحدة من الثلاث التي طلبها، ومنها أن يذهب بنفسه إلى يزيد).

١٠ - وأيضاً أليس من الممكن أن يقال: إن كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه

وسلم، كانوا مع يزيد، ولم يَرواْ الخروج عليه، نذكر منهم: على سبيل المثال: أبوسعيد الخدري، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد، وزيد بن أرقم، فكأن أشياخ الأمة وأعيانها رأوا أن هذا الأمر (الخلافة) صرفه الله عن أهل البيت، بما أكده النبي صلى الله عليه وسلم مرارا، من أنه لا تفاضل بالأنساب، وتحذيره المتكرر لبني هاشم وبني عبدالمطلب خاصة من الارتكان إلى هذا.

ولولا ذلك الأصل الذي صار مقرراً في الدين، ما صرفت الأمة الخلافة إلى أبي بكر ثم إلى عمر وعثمان من بعده عن العباس وعلي (رضي الله عنهم جميعا) والعباس يومئذ شيخ بني هاشم، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «هذا بقية آبائي» وقد كان عمر يستسقي به الغمام، ويترجل على راحلته إذا مرّ به إجلالاً له، وكذلك عثمان «رضي الله عنهم».

هذا هو الأصل الذي تقرر في الإسلام، ووعته عن نبيها صلى الله عليه وسلم، وعمل به أشياخها، وأعيانها. «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

ولعلّي لا أجانب الصواب إذا قلت: إن هذه هي الحكمة الإلهية في أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ـ وهو أحب خلق الله إلى الله ـ رزيء ببنيه : القاسم الذي كان به يكنى، وعبدالله، ثم إبراهيم الذي رزقه على الكبر، وكان حزنه عليه ما كان. فسبحان العليم الحكيم.

ولكن (السبيئة) الذين دندنوا (بالرجعة) و (الوصي) وقالوا: «إن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل من عيسى، فيا عجباً كيف يؤمن مَنْ يؤمن برجعة عيسى، ولا يؤمن برجعة محمد؟ ثم قالوا لكل نبي وصي، ووصي محمد (صلى الله عليه وسلم) هو علي» فغرُّوا بعض العقول من أصحاب النحل القديمة، وغيرهم، وملئوا بطون الكتب بكاءً وعويلاً على آل البيت وحقهم السليب، وما ذاك إلا لإفساد عقيدة الأمة، وتفريق كلمتها.

ويشهد التاريخ الحق أن آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يصح عنهم شيء من هذه الترهات، بل سمعوا وأطاعوا، وأحسنوا عملاً، فرأينا الإمام عليّاً نعم المعين، ونعم المشير لأبي بكر (رضي الله عنهما) وهو صاحب الموقف المشهور، يوم أرجفت الجزيرة كلها بالرّدة، وصح عزم أبي بكر على قتالهم، وتهيأ للخروج إليهم بنفسه على رأس الجيش، فما منعه من ذلك يومها إلا عليّ بن أبي طالب.

أخرج الدارقطني عن ابن عمر قال: لما برز أبوبكر واستوى على راحلته (أي يريد

الخروج لقتال المرتدين بنفسه) أخذ علي ـ رضي الله عنهما ـ بزمامها، وقال: «إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم أُحد: شِمْ سيفك (أغمد سيفك)، ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك، لا يكون للإسلام نظام أبداً» أ. هـ . وأخرجه الساجي عن عائشة أيضاً (أنظر كنز العمال: ١٤٣/٣ ، والبداية والنهاية: ٣١٥/٦، وحياة الصحابة: ٨٣/٢).

وأيضاً مما يؤكد أن أهل البيت رضي الله عنهم بُرءاء مما ينسب إليهم ومما أضيف إلى أقوالهم (مثل ما نسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه في نهج البلاغة) ـ مما يؤكد ذلك ما رواه عوانة بن الحكم عن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم أجمعين) أنه خطب أصحابه ذات يوم ووعظهم، فقيل له: قد سمعنا مقالتك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟

قال: وما عسيت أن أقول فيهما، صحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأحسن الصحبة وهاجرا معه، وجاهدا في الله حق جهاده، ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما، ولا يقول فيهما إلا خيراً» (الحور العين ـ نشوان الحميري: ١٨٥ ـ نقلاً عن مقدمة السيل الجرار للشوكاني ص٩).

فانظر إلى كلام إمام جليل من أئمة أهل البيت يقطع بأن أهل البيت برءاء مما ينسب إليهم، أو يقال باسمهم، أو لحسابهم. ولكن الذين تولَّوا كِبر هذا الإفساد، وأشاعوا هذه الأباطيل، هم (السبيئة) التي عشعشت وفرخت، واتخذت أهل البيت ستاراً، فقالوا فيما حكاه الإمام الغزالي عنهم: «نتحصن بالاعتزاء إلى أهل البيت ونتودّد إليهم بما يلائم طبعهم: من ذكر ما تم على أسلافهم من الظلم العظيم، والذل الهائل، ونتباكى لهم على ما حل بآل محمد صلى الله عليه وسلم، ونتوصل بذلك إلى تطويل اللسان في أئمة سلفهم، الذين هم أسوتهم وقدوتهم. حتى إذا قبحنا أحوالهم في أعينهم، وما ينقل شرعهم إلا بنقلهم وروايتهم. انسدّ عليهم بابُ الرجوع إلى الشرع، وسهل علينا استدراجهم إلى الانخلاع من الدين». (الإمام الغزالي حجة الإسلام أبوحامد ـ فضائح الباطنية:١٩).

وللأسف شرب كثيرون من هذا الكأس المسموم، وجاز عليهم هذا الزيف، وفشا في ألسنة الخطباء والمحاضرين، وعلى ألسنة الكاتبين، بل والدارسين، وصار بعضه بديهيات مسلّمة لا تقبل النقاش والمراجعة.

والله وحده المستعان.

١١ - ولماذا لا نقول أيضاً: إن يزيد كان أهلاً للخلافة مستصلحاً لها، فقد نشأ في البادية في أخواله بني قضاعة، فتربّى - مثل أشراف العرب الأولين - على الخشونة ، والرجولة، والفروسية، واللعب بالسلاح، وعلى الشهامة والنجدة، والمروءة، والفصاحة، وسلامة اللسان، وقوة العارضة وقوة المنطق.

أليست تلك قيم البادية؟ أليست تلك هي الصفات التي كان يحرص أشراف العرب على أن يورثوها لابنائهم، وهي التي كانوا يفاخرون بها في شعرهم.

ويزيد بن معاوية فوق هذا أمه بدوية أصلاً، فهي (ميسون بنت بحدل) صاحبة البيت المشهور الذي تغنت به حنيناً إلى البادية، عندما تزوجها معاوية رضي الله عنه، وأسكنها العاصمة (دمشق)، قالت:

لبيتٌ تخفق الأرواح فيه .. أحب إلي من قصرٍ منيف

ولذا صح أن يصفه البلاذري في ترجمته: «بأنه كان ماضي العزيمة، لا يهم بشيء إلا ركبه».

كما جاء عند البلاذري عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه، حين قال له رجل: «أخبرني عن خطباء قريش، قال: «معاوية وابنه يزيد» (برغم كل ما رواه البلاذري عن يزيد من سوء).

ولقد عدّه الجاحظ من خطباء العرب، فحكى هذا الذي ساقه البلاذري عن سعيد بن المسيب، وروى أيضاً: أنه تكلم الخطباء عند معاوية، فأحسنوا، فقال: والله، لأرمينهم بالأشدق، قم يا يزيد فتكلم (البيان والتبيين: ١/٨٦، ١/٢٣٤).

بل حفظت كتب الأدب، خطبه ومواعظه، وبلاغته، وتوقيعاته، ذلك الفن الذي لا يحسنه إلا من أوفى على الغاية في البلاغة والفصاحة، فمن ذلك ما سجله ابن عبدربه في العقد الفريد من توقيعه لعبدالله بن جعفر بن أبي طالب، في كتاب أرسله إليه (عبدالله بن جعفر) يستميحه لرجال من خاصته: «احكم لهم بآمالهم إلى منتهى آجالهم».

ووقّع في كتاب مسلم بن زياد عامله على خراسان، وقد استبطأه في الخراج «قليل العتاب يحكم مرائر الأسباب، وكثيره يقطع أواخي الانتساب».

ووقّع إلى عبدالرحمن بن زياد: «القرابة واشجة، والأفعال متباينة، فخذ لرحمك من فعلك».

- أنترك كل هذا من أخبار يزيد بن معاوية، ونزف إلى مناهج مدارسنا، ووسائل إعلامنا خبر (الإحن البدرية)، ذلك الخبر الغريب المريب، الذي قال عنه شيخ الإسلام: إنه باطلٌ لا أصل له، والذي لا نعرف له سنداً؟؟

هذه هي قضية يزيد ومقتل الحسين، أما أن يُجتزأ الكلام، ويُختزل، بهذه الصورة الشائعة على الألسن: «قتل يزيدُ الحسينَ»!!! فهذا فيه تدليس وتزييف.

ونحن نؤكد مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، أنه ما كان لابن زياد أن يقاتل الحسين ويقتله، وكان في وسعه أن يتركه ينصرف إلى المدينة، أو إلى يزيد، أما أن يرفض إعطاءه واحدة من الثلاث التي طلبها، فيلجئه إلى القتال، فهذا ما لا نقوله ولا نرضاه.

ولكن شتان بين أن نرى الصورة كاملة، بكل أبعادها:

* خروج الحسين والأمة مجمعة على أمرها.

* تغرير أهل الكوفة بالحسين وبيعة اثني عشر ألفا له ثم نكوصهم.

* رَفْضُ الحسين لنصح آله، وكبار الصحابة وعقلاء المشيرين.

* خروج جيش ابن زياد للقاء الحسين رضي الله عنه.

* رفض الحسين رضي الله عنه البيعة، وتعنت ابن زياد.

فرقٌ بين هذا، وبين التزييف والتدليس.

* * *

والرأي أن مقتل الحسين إحدى الدواهي التي دهت هذه الأمة، وإحدى الكائنات العظمى التي رأتها الدنيا. ولكنها جرت عن اتفاقات رديّة، بدون تدبير وإعداد وترصّد، حتى إن ابن زياد التي أفلتت منه، وباء بها وحده ندم عليها، هو وآله، ولكن حيث لم يكن ينفع الندم!!!

* * *

هذا هو حقيقة الفاجعة، وأصلُها وفصلها. وكفى.

أما أن تظل تشكل وجدان الأمة، وتفرق كلمتها، وتوحي بخيبتها، فهذا ما لا يرضاه عاقل.

* * *

ثانيا: الطلقاء، ومسلمة الفتح

- ثم ما هذا الصدى الآخر عن هند(آكلة الأكباد) والدندنة (بُمسلمة الفتح) و (الطلقاء)، حاشاك أن تَرْين فيهم رأي (العميد) في كتابه الثاقب (في الشعر الجاهلي) عندما قال: «ولقد مضت قريش في جهادها بالسنان واللسان، والأنفس، والأموال، وأعانها من أعانها من العرب واليهود، ولكنها لم توفق.

وأمست ذات يوم، وإذا خيل النبي (وأقول أنا صلى الله عليه وسلم) قد أظلّت مكة، فنظر زعيمها وحازمها أبوسفيان، **فإذا هو بين اثنتين: إما أن يمضي في المقاومة، فتفنى مكة، وإما أن يصانع ويصالح. ويدخل فيما دخل فيه الناس، وينظر لعل هذا السلطان السياسي الذي انتقل من مكة إلى المدينة، ومن قريش إلى الأنصار، أن يعود إلى قريش، وإلى مكة مرة أخرى، أسلم أبوسفيان وأسلمت معه قريش، وتمت للنبي** (وأقول أيضاً: صلى الله عليه وسلم) **هذه الوحدة العربية، وألقى الرماد على هذه النار التي كانت متأججة بين قريش والأنصار، وأصبح الناس في ظاهر الأمر إخوانا مؤتلفين في الدين»** أ. هـ بنصه ص٥١.

هكذا (يصانع ويصالح) و (ينتظر) (لعل السلطة تعود إليه) (أصبح الناس إخوانا في ظاهر الأمر) يعني أن مسلمة الفتح لم يؤمنوا، ولم يسلموا حقيقة!!

ثم يستمر يؤكد هذا المعنى (كيد أبي سفيان من أجل السلطة) فيقول: **«ولما انتهت الخلافة ـ بعد المشقة ـ إلى عثمان، تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل أبا سفيان خطوة أخرى، فلم تصبح الخلافة في قريش فحسب، بل أصبحت في بني أمية خاصة، واشتدت عصبية الأمويين.. وعاد العرب إلى شرٍّ مما كانوا فيه في جاهليتهم من التنافس والتفاخر».**

ثم قال: **«أما معاوية فاصطنع الحلم كعادته.. وأما يزيد، فقد كان صورة لجده أبي سفيان، كان رجل عصبية وقوة وفتك، وسخط على الإسلام، وما سنه للناس من سنن!!».**

كذا بحروفه.

وليست هذه زلة قلم، أو سبق لسان، فقد عاد فأكدها، حفيًّا بها، مصراً عليها، فقال: «قلت : **إن يزيد كان صورة صادقة لجدّه أبي سفيان، يؤثر العصبية على كل شيء، وأنت لا تنكر أن يزيد هو صاحب وقعة الحرة، التي انتهكت فيها حرمات**

الأنصار في المدينة، والتي انتقمت فيها قريش من الذين انتصروا عليها في بدر، والتي لم تقم للأنصار فيها قائمة، ولأمرٍ ما يقول الرواة حين يقصون وقعة الحرة: إنه قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدراً، أي من الذين أذلوا قريشاً» أ. هـ بنصه.

انظر وتأمل: يزيد مثل جده أبي سفيان رجل عصبية.. وسخط على الإسلام وما سنه للناس من سنن.

أبوسفيان (صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم) ساخط على الإسلام، لا سياسة فحسب، بل ديناً فهو **«ساخط على ما سنه للناس من سنن»**.

يزيد مثل جده أبي سفيان يؤثر العصبية على كل شيء ، وهل كل شيء عنده تعني شيئاً غير الإسلام؟

* * *

ولا أجد أبلغ في وصف هذا الاتهام الفاسد الضال لمسلمة الفتح، من قول شيخي أبي فهر محمود محمد شاكر تعليقاً على قول مماثل: **«والخطأ في مثل هذا الحكم الدامغ، يكبر عن أن يسمى خطأ، إنه الحالقة: حالقة الدين، لا حالقة الشعر، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، تستأصل دين الصحابة والتابعين، وتستأصل أمانتهم في تبليغه، وتستأصل ما بذلوه في نشره في مشارق الأرض ومغاربها، وتستأصل تاريخهم، وتستأصل تاريخ الحياة الإسلامية كلها ثلاثة عشر قرناً. فيالها من بلوى تستهلك دين امرىء إذا نطق بها، وتخسف بتقوى سامع إذا لم ينكرها»** (مجلة المسلمون ـ العدد الأول بتاريخ غرة ربيع الأول ١٣٧١ ـ ٣٠ نوفمبر ١٩٥١م ص٤٣).

فهذا الحكم الظالم الضال المضل باطلٌ بصريح العقل، وبصحيح النقل القاطع المتواتر لوقائع التاريخ ومواقف هؤلاء الذين يلغ في تاريخهم الوالغون، ويتدسس إلى إيمانهم ودخائل قلوبهم المتدسسون.

إن هذا العبث في دين الله ،بالتعريض (بالطلقاء) و (مسلمة الفتح) و (الإحن البدرية) و (العصبية القرشية) لا يسوغ في عقل عاقل، إلا إذا خرج من هذا الدين، ويمكن للباحث أن يردّ هذا العبث، ويدفع هذا القول، ويبين سقوطه من عدة وجوه منها:

١ - إن عامة الصحابة كانوا من مسلمة الفتح، وهم الذين حملوا إلينا الدين، وأكملوا بلاغ رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، بما حفظوا من القرآن ، وبما شهدوا من السنن، وما بلغوا من أحكام، ولولا ما بلّغ هؤلاء، لدرس الدين، وانطمست معالم

السنن، فما بلغنا الدين إلا عن هؤلاء الذين نزعم أننا نحاكمهم إلى الدين..

ثم بما قاموا به من جهاد لحماية الدين وتثبيت أركانه، ثم نشره في العالمين، ولولا جهودهم وجهادهم، لما تزلزلت أركان طغيان الروم، واستبداد الفرس، ولما تحرر الناس من السلطان والجبروت لهؤلاء وهؤلاء، ولما كانت لديهم فرصة لسماع الدعوة، ولا لبلوغها إليهم، ومن ثَمَّ دخولهم في دين الله أفواجا.

قلت: إن عامة المسلمين كانوا من (مسلمي الفتح) من (الطلقاء)، نعم، ويتضح ذلك من الوقائع والأرقام التالية:

- كان عدد المسلمين، الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، في غزوة الحديبية في السنة السادسة ألفاً وأربعمائة (١٤٠٠).

- وكان عدد المسلمين، الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في عُمرة القضاء، في السنة السابعة ألفين (٢٠٠٠).

- وعدد من خرج من النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة في السنة الثامنة، كان عشرة آلاف (١٠٠٠٠) (ابن سعد في الطبقات وغيره)، ولم يتخلف أحد عن هذه الغزوة، روى ابن إسحاق بإسناد حسن: «وأوعب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد» (سيرة ابن هشام: ١٢٤١/٤) وانظر (أكرم ضياء العمري - السيرة النبوية الصحيحة ٤٧٤).

- وأما من خرج من النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، في السنة العاشرة، فقد كان أربعين ألفاً (٤٠٠٠٠) (كذا قدّرهم الإمام أبوزرعة، فيما نقله عنه ابن كثير، في اختصار علوم الحديث: ١٨٥.

- عن (أكرم ضياء العمري - بقي بن مخلد القرطبي: ١٨)

فإذا حج مع الرسول صلى الله عليه وسلم **أربعون ألفاً** من المدينة ومن حولها، فقط، ناهيك بمن كان في مكة وما حولها من المسلمين، ومن كان في غير مكة والمدينة، من مواطن القبائل المختلفة.. **أليس سواد هؤلاء المسلمين من مسلمة الفتح؟**

بلفظ أوضح: ارتفع عدد المسلمين **من عشرة آلاف عام الفتح، إلى نحو ثمانين ألفاً عام حجة الوداع، فسواد المسلمين إذاً وعامتهم كان من مسلمة الفتح.**

ولقد أكد القرآن الكريم ذلك: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ سورة النصر.

إذا قال الله سبحانه وتعالى ممتنا على نبيه «ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا» أي بعد أن كان يدخلون آحاداً، وقد ثبت أن هذه السورة نزلت في فتح مكة، قولاً واحداً، كما قاله ابن كثير في تفسيره. أليس هذا ناطقاً صراحة بأن (أفواج) المسلمين أي عامتهم وكثرتهم كانت فيمن أسلم بعد الفتح. ؟

وروى البخاري في صحيحه، عن عمرو بن سلمة أنه قال: «لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الأحياء تتلوّم (تنتظر) بإسلامها فتحَ مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم، فهو نبي..».

فمن يتشكك في (مسلمة الفتح) أو يغمزهم، فإنما يتشكك في إيمان عامة الصحابة، ويغمز عامة المسلمين، وأعتقد أن تلك حقيقة لا يماري فيها ذو مُسكة من عقل.

٢ - وهذا القول أيضاً يشهد على أصحابه، بالعجز عن معرفة سرّ هذا الدين، وإدراك كنه قوته، وقدرته حينما تخالط بشاشته القلوب، فما إن يُسلمُ الرجل حتى يتبدل خلقاً آخر غير الذي كان، وتتفتح نفسه بمعان جديدة، وصور جديدة، وأحاسيسَ جديدة، ويعنيه ويشغله أن يبدِّل ظاهره أيضاً كما تبدّل باطنه، وأخبارهم في ذلك تبلغ مبلغ التواتر، حيث كان منهم الذين ينخلعون من ثيابهم، والذين ينخلعون من أموالهم، والذين يخرجون ساعة إسلامهم يتعرضون لأعداء الله ويقاومونهم، وهم يرجون أن يصابوا في سبيل الله بمثل ما أصابوا به من سبقوهم إلى الإسلام.

أما مواقفهم، وجهودهم، وجهادهم غداة إسلامهم، فأكثر من أن تُروى، ويكفي أن نشير إلى ما كان من أبي جندل، وأبي بصير، فقد أسلما ولحقا بالمسلمين، وردّهما النبي صلى الله عليه وسلم إلى المشركين بمكة، وفاء بصلح الحديبية، ففرّا من مكة، وروّعَا قريشاً، وهدّدا أمنها، حتى طلبت من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يضمهما إليه بالمدينة (وهي التي أصرت على أن تشترط على الرسول في صلح الحديبية: أن يردّ من جاءه مسلما من قريش، وألا تردّ قريش من جاءها كافراً مرتداً من المدينة).

وها هو نُعَيم بن مسعود رجلٌ فَرد يُسْلم في أثناء غزوة الخندق، وينتقل من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان، وما هي إلا ساعات، - بل أقل - حتى كان له دَوْرٌ في حسم المعركة لصالح المسلمين.

بل إن الرجل كان يأتي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، يريد به الأذى، فما هي إلا أن يدخل الإسلام قلبه لسبب أو لآخر، حتى يصير بنفسه وولده وآله وماله، فداءً

للرسول صلى الله عليه وسلم، وللدين الذي جاء به.

نعم، ما إن يسلم الإنسان حتى تتفتح في فؤاده صفحة جديدة «صفحة يقرأ فيها القاريء قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس، ويعلم منها قبل كل علم، أن هذا الدين كا قدرة بانيةً منشئة من لدن المقادير التي تسيطر على هذا الوجود (من كلام العقاد في وصف أثر الإسلام في نفس عمر رضي الله عنه).

وانظر إلى خالد بن الوليد قائد خيل المشركين في أحد، الذي خطف النصر لقريش، بعد أن ولت الأدبار، والذي بلغ من بغضه للإسلام أن خرج من مكة يومَ عمرة القضاء، ولم يطق ان يشهد المسلمين يطوفون بالبيت، ما إن يُسلم، ويدخل الإيمان قلبه حتى نجده في (مؤتة) يخطف النصر للمسلمين، ويسميه الرسول صلى الله عليه وسلم (سيف الله المسلول)، وتصدّق الأيام تسمية الرسول هذه في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، فنجده وحده يقاتل يوم فتح مكة، ويقاتل مَنْ؟ يقاتل صديق صباه وشبابه، ورفيقه السابق في الحرب على الإسلام والمسلمين. يقاتل (عكرمة) بن أبي جهل، ولا يحول بينهما طيف الودّ وسابق العهد، كما قال الشاعر:

وكنت إذا خانني خِلٌّ قديم وعقّني
وفوّقت يوما إلى مقاتله سهمي
تعرّض طيف الودّ بيني وبينه
فكسّرت سهمي وانثنيت ولم أرم

- بل انظر وتأمل فيمن أسلم، وحضرت المعركة لحظة أعلن إسلامه، فحمل سلاحه، وخرج مجاهدا في سبيل الله، حتى حظي بالشهادة واستحق أجرها. وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة مثل (الأُصَيْرم) أحد بن عبد الأشهل، الذي كان يأبى الإسلام على قومه، فلما كان يوم أحد، وخرج رسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين، وقع الإسلام في قلبه، فحمل سلاحه ولحق بالمسلمين، وبعد المعركة، وجدوه بين القتلى، فعجبوا لأمره، وقالوا لقد تركناه وهو مكذب لهذا الأمر، فسألوه وهو يجود بنفسه: ما جاء بك؟

قال: «آمنت بالله ورسول، وأسلمت لله رب العالمين، فحملت سيفي ولحقت بالمسلمين، ثم قاتلت حتى أصابني ما ترون» ومات في أيديهم، فذكروا ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال: «إنه لمن أهل الجنة».

وكان أبوهريرة رضي الله عنه يُلغز بهذا، فيقول: «حدثوني عن رجل دخل الجنة، ولم يُصلِّ قطّ».

فلما عجزوا كان يقص عليهم خبر الأُصَيْرِم (سيرة ابن هشام: ٨٧١/٣) (ورواه أبوداود في السنن: ١٩/٢، والحاكم في المستدرك:٢٨/٣).

٣ - ثم هذا حكمٌ مخالفٌ لصريح القرآن الكريم، ومحادّة لحكمه القاطع بإسلامهم، فالله سبحانه عند فتح مكة يبشر رسوله صلى الله عليه وسلم بالنصر، وبأن «الناس يدخلون في دين الله أفواجا» وهل للدخول في دين الله معنى غير الإسلام الكامل الصحيح، فما بالك إذا كان هذا في مقام البشارة والامتنان، أيكون التبشير بإسلام (المصانعين) (المتربصين) (المتظاهرين الأدعياء) كما يقول العميد.

وقد يماري البعضُ بالفرق بين السابقين الأولين، الذين فضلهم القرآن الكريم، وأشار إلى ذلك في أكثر من آية، ذكر ذلك مفصلاً مفسّراً في سورة الحديد: ﴿ .. لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ﴾ (آية ١٠).

ونحن هنا لا ننكر فضل السابقين ـ حاشا لله ـ ولكن ننكر التشكيك في صدق اللاحقين. ثم إن الآية الكريمة التي أكدت تفضيل السابقين، هي التي أكدت صدق اللاحقين، قال تعالى :﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ الآية ١٠ من سورة الحديد نفسها، فالله سبحانه لا يعد بالحسنى التي هي الجنة، (المصانعين) (المتربصين). بل إن في ختام الآية ما يمكن أن نفهم النهي عن التفضيل بين هؤلاء وهؤلاء، فقد بين سبحانه أنه الخبير بالأعمال، الذي يدرك السرّ وأخفى، وأنه سبحانه المطلع على خفيات القلوب، وطويات الصدور، التي بها توزن الأعمال.

ـ ومن هنا كان فقه الصديق رضي الله عنه، فقد كان يسوّي بين السابقين الأولين وغيرهم في الأعطيات تاركاً التفضيل بينهم لجزاء الله الأخروي، وكان عمر رضي الله عنه يقوله له: كيف تسوّي بين من قاتل مع رسول الله ومن قاتل رسولَ الله؟

ولما آل الأمر إلى عمر الفاروق رضي الله عنه، جعل الناس مراتب في العطاء باعتبارات عدّه، منها اعتبار السبق إلى الإسلام، ولكن أثر عنه أنه قال: «لئن عشت إلى قادم لألحقن أسافل الناس بأعلاهم» ولم يمهله الأجل.

فكأنه رضي الله عنه رجع إلى رأي أبي بكر في ترك هذا التفضيل إلى الله

سبحانه في الدار الآخرة، ولا حرج على فضل الله، فأما في الدنيا، فكل من دخل في الإسلام تقدم أو تأخر سواء.

٤ - وفي هذا أيضاً محادّة، ومضادّة للرسول صلى الله عليه وسلم، ويلزُم منه حكمٌ ووصفٌ للرسول صلى الله عليه وسلم، نتعوذ بالله منه، ولا نجريه على سنّ قلمنا!!

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم موصولاً بالسماء - بهذا يؤمن المسلمون الصادقون - وكانت السماء تعلمه بالمنافقين، وقد سماهم صلى الله عليه وسلم، لصاحب السرّ المكنون حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وعرّفه إياهم بأعيانهم، فكيف يغيب عنه صلى الله وعليه وسلم أمرُ هؤلاء الطلقاء، فيوليهم الولايات والقيادات، فيسن بذلك لمن بعده الاقتداءَ بهم، والاعتمادَ عليهم.

والمسألة دائرة على حرفٍ واحد!! هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم (مصانعة) و (تربص) و (مخادعة) أبي سفيان وقبيله من بني أمية ومسلمة الفتح أم لم يعلم؟؟

- لقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عتابَ بنَ أسيد بن أبي العاص بن أمية - على مكة المكرمة، على أفضل الأرض وأطهرها. وهو أول والٍ لها بعد الفتح، ولم يكن قد مضى على إسلامه إلا نحو شهر، فهو من (مسلمة) الفتح، ثم إنه يومها كان شاباً حدثاً في نحو العشرين من عمره، وأقام للناس الحج في السنة نفسها، أي أسلم في أواخر رمضان، وأم الحجيج في السنة نفسها، أي بعد نحو شهرين. وقد قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «يا عتابُ: أتدري على من وليتك؟ وليتك على أهل حرم الله عز وجل، ولو أعلم خيراً لهم منك استعملته عليهم» (ابن حجر: أسد الغابة: ٣٥٨/٣).

انظر: أموي . شاب حدث، من (مسلمة الفتح) يوليه الرسول صلى الله عليه وسلم على خير أرض الله. ثم يشهد الرسول صلى الله عليه وسلم له بأنه لم يجد خيرا منه.

ولهذا لاشك دلالة تقطع لسان من يتكلم في مسلمة الفتح عامة، وفي بني أمية خاصة، نبه إليها القاضي ابن العربي قائلا: «لو كان ما يقال في حق بني أمية صحيحاً، ما استفتح الرسول صلى الله عليه وسلم الحال بولايتهم، ولا مكّن لهم في الأرض بأفضل بقاعها، وهي مكة، وهذا أصلٌ يجب أن تشد عليه باليد» أ. هـ (العواصم من القواصم: ٢٣٥).

- وقد كان عتاب شديدا في ولايته، شديدا على المريب، لينا على المؤمنين، وكان يقول: «والله لا أعلم متخلفا عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق» فقال أهل مكة: «يا رسول الله استعملت علينا أعرابيا جافيا» فقال عليه السلام: «إني رأيت فيما يرى النائم أنه أتى باب الجنة، فأخذ بحلقة الباب، فقعقعها حتى فتح له ودخل» ا.هـ بنصه عن ابن حجر في الإصابة.

- وممن ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم أبوسفيان (رضي الله عنه) رأس بني أمية، أو المتهم الأول من مسلمة الفتح (أستغفر الله ربي من تسطير هذا الكلام).

هذا أبوسفيان يوليه الرسول صلى الله عليه وسلم على نجران، ويظل والياً عليها، حتى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كلفه عليه الصلاة والسلام أيضاً بمهمة أخرى أخطر من مهمات الحرب من الناحية النفسية، وذلك أنه عهد إليه أن يهدم (مناة) فتوجه إليه، وحطمه تحطيماً، وهو الذي كان إلاها يُعبد من أيام.

ورسول صلى الله عليه وسلم ، لا يولّي أمرَ المسلمين (للمصانعين) (المتربصين) بالدين. إن من يُشكك في إسلام هؤلاء، يشكك بالضرورة - في رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم واتصاله بالسماء، من غير أن يدري.

(وإن كان هناك من يدري، وهم الذين بثوا - في نابتة هذا العصر - هذه الأفكار، من المبشرين والمستشرقين، ومن آمن لهم من أئمة المنوّرين المتغربين).

(أتمنى أن يتجرد أحد شباب الباحثين لعمل دراسة يتتبع فيها، قوّاد الفتوح، والولاة، وأمناء بيت المال، وكبار المجاهدين، والمنفقين في سبيل الله، والقضاة، والمفتين، والرواة - منذ فتح مكة، ليقدم لنا بياناً إحصائياً شافياً بأعمال وجهاد (مسلمة الفتح) ودورهم في سبيل هذا الدين، ليقطع عنا هذا الشغب، الذي يشغب به الشاغبون، اتباعا لتحليلات المستشرقين والمبشرين وتلاميذهم).

٥ - وفي هذا الادعاء أيضاً جهلٌ بطبيعة هذه النفوس المستقيمة، وحقيقة تلك الشخصيات القوية، ذات الطبيعة النقية التي لا تعرف التواء الضعف، وخداع الذلة، والوصول إلى تحقيق المآرب عن طريق المخاتلة والمخادعة.

إن هذا الجيل الذي اختصه الله سبحانه وتعالى لحمل رسالته الخاتمة، كان نوعاً من البشر لم تر الدنيا مثله ، ولا يحتج علينا أحد بالأخطاء التي كانت فيهم في الجاهلية، فإن هذه الأخطاء جاءتهم من طريق محاسنهم - كما سجل ذلك بعض العلماء من قديم -

فَوأْدُ البنات ـ على بشاعته ـ جاءهم من فرط الغيرة على العرض، والقبليةُ والحروب الطائشة جاءتهم من الأنفة، والعزة، وكراهية أن يدينوا لمن يأمرهم وينهاهم، ويجبي أموالهم.

ولذا عرفنا في تاريخهم حلف الفضول، الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: لو دُعيت إلى مثله في الإسلام ، لأجبت، وعرفنا فيهم (المطعمون)، و(الحنفاء).

هذه المعادن لا تعرف التواء الضعف، وخداع الذلة، فما كان مثل هؤلاء الصناديد بالذين يصانعون، أو يداهنون، وإنما هي قوةٌ في العارضة، واستقامةٌ في النفس، ونصاعةٌ في السريرة إن في الجاهلية ، وإن في الإسلام.

فكم من مشرك وقع في الأسر، ووقع الإسلام في قلبه، وكان بوسعه أن يعلن دخوله في الإسلام، فيصبح أخاً للمسلمين، وواحداً منهم، معصوم الدم والمال، ولكن واعجبا كان يكتم إيمانه (وهو بين المسلمين) حتى يتم فداؤه، ثم يلحق بقريش، ومن هناك يعلن إسلامه، فلما يسأله من حوله، وهم في ذهولهم: هلا أسلمت قبل أن تُفتدى؟

يقول: كرهت أن يظن بي أنني جزعت من الأسر!!

ـ نذكر من هؤلاء (الوليد بن الوليد)، فقد شهد (بدراً) مع المشركين، ولما وقع في الأسر، غالى آسروه في فدائه لغنى قومه وثرائهم، ثم لشدة عداوتهم للإسلام، وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم ألا يقبلوا في فدائه غير «شِكَّة» أبيه الوليد، أي سلاحه، وهو عبارة عن درع سابغة، وسيف، وبيضة.

وطالت المفاوضة في افتدائه، بين أخويه وآسره عبدالله بن جحش الذي طلب أربعة آلاف درهم، حتى اختلف أخواه (هشام وخالد) يحاول خالد ويطاول، ولا يوافق على دفع كل هذا المبلغ، فقال هشام: «إنه ليس بابن أمُك»، (وكان هشام شقيقه دون خالد) والله لو أبي آسره إلا كذا وكذا، لفعلت، وجاءوا بالشكة، فقوّمت ضمن ما دفع من فدية، ولعلنا نلمح في أخذ شكة الوليد بالذات، غرضاً معنويا مقصوداً.

والذي يعنينا أنه بعد كل هذا العناء، والمطاولة والمفاصلة، وإجبار سيد بني مخزوم على تسليم (سلاحه) في فداء ابنه ـ بعد كل هذا ، ما إن تمَّ فداءُ الوليد حتى أعلن إسلامه!! فصاح به أخواه، وقومه: هلا كان ذلك قبل الافتداء ؟ إذاً لأرحت واسترحت!!

فأجابهم: خشيت أن يظن بي أني أسلمت جزعاً من الأسر!!

وهو يعلم أن في إسلامه قبل الافتداء النجاة والسلامة، وأن في إعلان إسلامه بمكة

العذاب، والحبس، والاضطهاد، والقطيعة، ناهيك به إذا كان إسلامه بعد عناء الافتداء، وما كان فيه من إرغام لأبيه على تسليم سلاحه.

يعلم الوليد كل ذلك، ولكن مثله لا يدخل للإسلام من باب فيه أدنى شائبة - ولو من باب الظن - لمروءته، وشهامته، وجَلَده، فهذه المعادن لا تعرف مثل هذا السلوك.

ولقد كان الوليد بنُ الوليد يعلم - لا شك - ما ينتظره عند أبيه وقومه، بعدما جبههم بإعلان إسلامه، فقد لقي من صنوف العذاب وألوانه ما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم، فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، يدعو له باسمه الصريح وهو يقنتُ في صلاته: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعل عليهم سنين كسني يوسف».

واصطبر الوليد على العذاب وطاول البلاء والامتحان سنين، حتى أفلت من أسر أبيه وقومه، ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ماشياً على قدميه، ولقي في طريق هجرته ما لقي، مما هو مفصل في مظانه!!

أمثل هذه المعادن النقية تعرف الالتواء، والمصانعة، وتسلم (خداعاً) و (تربصاً)، سُلّتُ ألسن السفهاء!!

* وقصة أبي العاص بن الربيع، في أسره وفدائه، ثم إعلان إسلامه، تستحق أن تُروى، فهي صورة من قصة الوليد بن الوليد، ولكن نكتفي بالاشارة إليها طلبا للإيجاز.

* ثم ألا يروعنا موقف عتبة بن ربيعة، يوم بدر، حين كان أول خارج للمبارزة، ونادى ابنه الوليد، ونادى أخاه شيبة، فخرجوا جميعاً، وصاح الثلاثة: من يبارز؟ ثم سقطوا جميعاً صرعى في أول جولة، بل قبل أول جولة.

عتبة هذا، قد رأيناه قبلاً يريد أن يرجع بالناس، قائلاً: لقد خرجنا لإنقاذ تجارتنا، وها هو أبوسفيان قد نجا بها، ووصل إلى مكة، ففيم الخروج؟ وفيم القتال؟

ولكن لما غلبه أبوجهل وابنُ الحضرمي على رأيه، واستقرّ قومُه على الخروج، لم يتخذ خلافهم له، وشغبهم عليه تعلّة للتلكؤ، أو التردّد، أو التمهل طلباً للنجاة، وأملاً في السلامة!!

فعندما التقى الجمعان، وكشرت الحرب عن أنيابها، وقال عينُ قريش الذي استطلع حال المسلمين، وطاف بجيشهم: «رأيت البلايا تحمل المنايا، رأيت نواضح يثرب تحمل

الموت الناقع!!».

في هذه اللحظة لم يلتفت عتبةُ إلى أن خروج قومه كان عن خلافه، وعن كُره منه، وإن هذا الذي حضر من الهلاك لم يكن رأيا له، بل مضى كالسهم، هو وأخوه، وابنه إلى حتفهم دفاعاً عن قومهم، بلا تردّد، أو ضعف، أو التواء، وكان له سعة ومندوحة من أكثر من طريق لو أراد، ولكنها النفس المستقيمة، والمعادن القويمة.

- ثم أيضا نرى أبا سفيان بن حرب وهو مشركٌ يوم أحد، وهو ينادي المسلمين: يومٌ بيوم بدر، والحرب سجال.. ثم يقول: «ستجدون في قتلاكم مثله، والله ما أمرت، ولا سخطتُ إذ علمت».

كانت العرب تكره التمثيل بالقتلى، وترى أنه ليس من المروءة، وأقر الإسلام ذلك، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التمثيل بقتلى قريش يوم بدر، أما في يوم أحد، فقد كثرت المثلة في شهداء المسلمين، فلم ينج يومها إلا حنظلة الغسيل (رضي الله عنهم جميعاً).

فأراد أبوسفيان أن يبرأ من هذا الفعل، فأعلن للنبي صلى الله عليه وسلم، أنه لم يأمر بهذه المثلة، وإلى هنا. وتم الكلام، وبريء الرجل من عهدة هذا الفعل الشائن، الذي ارتكبه جيشه. ولكنه لم يشأ أن يترك المسلمين يحمدونه بما لم يفعل، إذ قد يُفهم من ذلك أنه كاره ساخط لهذا الفعل، فأعلن في نصاعة عجيبة: «وما سخطتُ إذ علمت»!!

إن الرضا والسخط أمر قلبي لا يطلع عليه أحد! ولكن الرجل يأبى إلا أن يكشف عما في ضميره: «ما سخطت إذ علمت»!!

هكذا. غاية في الوضوح..

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الناس معادن»[1].

٦ - ثم إن واقع التاريخ الثابت بالتواتر، الذي يوجب العلم اليقيني، يدحض هذه المفتريات، فالذين صنعوا للإسلام انتصاراته وفتوحاته، جُلّهم كانوا من (مسلمة الفتح) (الطلقاء)، فكيف يكون إيمانهم (مصانعة) و (مداهنة)؟؟ وما الذي يدعوهم إلى أن يحملوا رايةً لا يؤمنون بها، أو يدفعوا عن عقيدة يشكون في صدقها؟ وكيف يبذلون أموالهم ودماءهم وأرواحهم فداء لهذه العقيدة، ولهذا الدين الذي دخلوا فيه مصانعة؟

(١) إشارة إلى حديث صحيح رواه البخاري ومسلم.

أيجوز هذا في عقل عاقل، إلا أن يكون من (مثقفي) عصرنا الأغر، الذي خلّى مناهج أمتنا وراءه ظهرياً، وراح يخطف خطفة من هنا وخطفة من هناك باسم العصرية (والديكارتية) و(حرية الفكر).. إلخ، فما جنى إلا الغرور، والاجتراء والتهجم على ما لا يحسنه، والتقحم فيما لا يعرفه، والتردّي فيما يهلكه أولئك ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ سورة الكهف (آية ١٠٤) .

ـ يشهد التاريخ بالحق، وينطق بالصدق، فيسجل لنا جهود وجهاد هؤلاء الأبطال الصادقين في سبيل إعلاء كلمة الله، والذود عن دينه، ولم يقعد بهم تأخرهم بإسلامهم إلى ما بعد الفتح عن أن يستدركوا ما فاتهم، فضاعفوا من جهدهم وبذلهم، وأثر عن كثير منهم أنه عنّاه يوم إسلامه أن يستوثق من الرسول صلى الله عليه وسلم، أن الإسلام يجب ما قبله، وأن الله يغفر له ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيله، وقتالٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندها يبايع المصطفى صلى الله عليه وسلم، على أنه ما قاتل قتالا صداً عن سبيل الله إلا قاتل ضعفه في سبيل الله.. وما أنفق نفقةً في محاربة الإسلام إلا أنفق ضعفها في سبيل الله.

ويسجل التاريخ أنهم عاهدوا، وصدقوا الله ما عاهدوه عليه.

من هذه الأسماء التي أسلمت يوم الفتح، بل منها من تأخر عن يوم الفتح: ـ الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، أخو أبي جهل، وعم خالد بن الوليد، كان مضرب المثل في المجد والشرف والسؤدد، قال شاعرهم:

أظننت أن أباك حين تسبني.. كان الحارث بن هشام

- سهيل بن عمرو العامري.
- أبوسفيان بن حرب.
- حكيم بن حزام.
- عتاب بن أسيد.
- يعلي بن مُنْية.
- جرير بن عبدالله البجلي.
- هند بنت عتبة.
- الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

- يزيد بن أبي سفيان.

- عكرمة بن أبي جهل.

- صفوان بن أمية.

- ومعاوية بن أبي سفيان (كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم).

- وعثمان بن أبي العاص الثقفي (أسلم عام الوفود ـ السنة التاسعة).

- وأم حكيم بنت الحارث بن هشام (زوج عكرمة وابنة عمه) التي باشرت القتال بنفسها يوم (مرج الصُّفَّر) بالشام، وقتلت سبعة من الروم بعمود الخيمة عند القنطرة التي عرفت باسمها (قنطرة أم حكيم).

ولكل واحد من هؤلاء تاريخ في البذل والتضحية يستحق أن يروى، ولكنا سنكتفي بمثال واحد، نختاره من الذين كانوا أشد الناس عداوة للإسلام، وكان معرقا في العداوة، كابراً عن كابر، فنجعل مثالنا:

عكرمة بن أبي جهل

ـ يوم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بأبي هو وأمي ـ بالرفيق الأعلى، وماجت الجزيرة بالتمرد، والشقاق، حتى شملت الردة، كل أحياء العرب ـ من أثر الصدمة الكبرى، موت المصطفى صلى الله عليه وسلم. يومذاك نظر الصديق أبوبكر في الأمر، وصح عزمه، واستدَّ (أي استقام) رأيه، وقال: والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لقاتلتهم عليه، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» (رواه الجماعة إلا ابن ماجه).

قيل: مع من تقاتلهم يا خليفة رسول الله؟ قال: «وحدي حتى تنفرد سالفتي».

يومها، في هذا اليوم العصيب، من أيام الله، تلفت الصديق حوله، وفي عينيه تساؤل لهيف: من للحَوْمة؟ من للصدمة؟ من للحماية؟ من للذود عن مكة والمدينة؟

من لهذا الدين؟ من يجيب الله؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾.. سورة التوبة (آية ١١١) . يومها عقد الصديق أحد عشر لواء، لأحد عشر قائداً، فكم كان فيهم من (مسلمة الفتح)؟ وكم كان فيهم ممن تأخر إسلامه؟ وكم كان فيهم من السابقين الأولين؟ ثم كم كان فيهم من بني أمية بالذات؟

عكرمة بن أبي جهل

لقد كان فيهم عكرمة بن أبي جهل!! إي وربي: عكرمة بن أبي جهل، الذي فاق أباه في عداوة الإسلام، وكان أشد الناس على الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يكن عكرمة من (مسلمة الفتح) فقط، بل كان ممن أهدر الرسول صلى الله عليه وسلم دمه، وهرب من وجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، وقد روى ابن حجر في (الإصابة) قصة إسلامه عن الدارقطني، والحاكم، وابن مردويه، من طريق أسباط بن نصر عن السُّدي بن مصعب بن سعد عن أبيه قال: لما كان يوم فتح مكة، أمَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين (كان منهم عكرمة)(فأما عكرمة فركب البحر، فأصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة (لركابها) أخلصوا، فإنّ آلهتكم لا تغني عنكم هاهنا شيئا!! فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليّ عهداً إن عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلا أجدنه إلا عفوا كريماً».

ثم قال ابن حجر: وروّينا في فوائد يعقوب بن الجصاص من حديث أم سلمة، قالت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت لأبي جهل عذقاً (العذق للنخل كالعنقود العنب) في الجنة» فلما أسلم عكرمة، قال: «يا أم سلمة، هذا هو»!! ولم يعقب.

هذا عكرمة (رضي الله عنه) المهدر الدم، المطارد، الذاهب على وجهه، يولّيه أبوبكر الجيش. فعندما نثر أبوبكر (رضي الله عنه) كنانته بين يديه، واختار منها رضي الله عنه، أحد عشر سهما، وفتش رجاله، واختار منها أحد عشر قائداً، كان عكرمة واحداً من هؤلاء!!

فمن يعرّض (بمسلمة الفتح) و (الطلقاء) يغمز اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل يغمز اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ولى عكرمة صدقات هوازن فكان ذلك ترشيحاً له من المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وشهادة من السماء بصدق إيمانه.

أبلى عكرمة رضي الله عنه في حروب الردة بلاء حسناً، فحقق مهمته الأولى، وكان قد عقد له اللواء لحرب عُمان، وكانوا ارتدوا، فظهر عليهم، فوجهه أبوبكر إلى اليمن، فأخمد الفتنة فيها أيضاً، ثم لحق بخالد بن الوليد في حرب اليمامة، فكان معه حتى قضى على الفتنة، وقتل مسيلمة الكذاب.

وقد يقول قائل ممن أولعوا باللجاجة، واللدد، واتخذوا أسلافهم غرضاً: وماذا في ذلك؟ عرف أبوبكر في عكرمة نخوة الجاهلية، ونعرتها، وعنجهيتها، فولاه قيادة

الجيش، فاستثار فيه هذه المعاني، فقاتل إشباعاً لعظمته وغروره، وإثباتاً لقدرته، وتفاخراً بمكانه ومكانته (نعوذ بالله من الخذلان).

ولكننا نرى عكرمة بعد ذلك جندياً، فقد جعله أبوبكر على جيش صغير، يقف مدداً وراء الجيوش الأربعة التي أرسلها إلى الشام، ليساعد من يحتاج منها إلى مساعدته، وظل بالشام إلى أن فاز بالشهادة في سبيل الله، يقول ابن عبدالبر في الاستيعاب : «لزم الشام مجاهداً» أي عاش في الميدان، ولم يعد إلى مكة أو المدينة. لزم الميدان حتى مات شهيداً، رووا: إنه ساعة تضعضع صفُّ المسلمين يوم اليرموك، صرخ مؤنباً لنفسه: قاتلتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في كل موطن وأفرّ اليوم، ثم صاح بأعلى صوته منادياً: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث، وضرار بن الأزور، في أربعمائة من الأبطال، (منهم ابنه) فهبوا لا يقوم في وجههم قائم، وصدموا الروم، حتى ردّوهم مفزَّعين، ولم يعبئوا بما أصابهم. فما انجابت عجاجة المعركة مؤذنة بنصر الله، إلا بعد أن سقطوا جميعاً بين شهيد، ومثخن بالجراح يجود بنفسه، ولم ينج منهم إلا ضرار بن الأزور.

استشهد عكرمة رضي الله عنه، واستشهد معه ابنه، وكانت زوجته مع عقيلات قريش، بقيادة هند بنت عبتة، خلف الجيش، بوصاة من أبي عبيدة، يحملن أعمدة الخيام، وقطع الحديد ليفلقن بها هام من يرجع على عقبه من جنود المسلمين هرباً من حر القتال، قبل أن يفلقن بها هام من يخلص إليهن من علوج الروم.

ثم عكرمة نفسه هو صاحب القصة المشهورة، قصة الجرحى الذين آثر كل منهم صاحبه بالماء، حتى ماتوا جميعاً ولم يشربوه، روى ابن عبدالبر في الاستيعاب عن مصعب بن الزبير قال: استشهد باليرموك الحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وأتو بماء وهم صرعى، فتدافعوه، كلما دُفع إلى رجل منهم قال: اسق فلاناً حتى ماتوا، ولم يشربوه.

قال: طلب عكرمة الماء، فنظر إلى سهيل ينظر إليه، فقال: ادفعه إليه، فنظر سهيل إلى الحارث ينظر إلى الماء، فقال ادفعه إليه، فلم يصل إليه حتى ماتوا!!

هذا عكرمة : جهاد و استقتال حتى الشهادة، وإيثار بالماء الذي طلبه عند حرّ الحشرجة، ثم من أبلغ آيات صدقه مبايعة ابنه له على الموت، واستشهاده معه، وجهاد امرأته خلف الصفوف!!

ويقولون «مسلمة الفتح» ألا لا نامت أعين الجبناء.

ولم يكن الجهاد - حتى الاستشهاد - وحده، هو الذي قدمه عكرمة، بل البذل والسخاء مع إخلاص الطاعة والجد في العبادة، يروي ابن عبدالبر في الاستيعاب بسنده: «أن عكرمة عندما أسلم، قال: يا رسول الله علمني خير شيء تعلمه، حتى أقوله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فقال عكرمة: أنا أشهد بهذا، وأشهد بذلك من حضرني، وأسألك يا رسول الله أن تستغفر لي!! فاستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال عكرمة: والله لا أدع نفقة كنت أنفقتها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالا قاتلته إلا قاتلت ضعفه، وأشهدك يا رسول الله!! ثم اجتهد في العبادة» أ. هـ.

هذا سجل عكرمة، خشية الله سبحانه، وحرص على استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم، ووعد بأن يكفر عما كان، ببذل الضِّعف في المال والجهاد، والاجتهاد في العبادة!! وقد صدق الفعلُ القولَ.

ويَغمزون ويلمزون، ويقولون: «مسلمة الفتح» ألا سُلّت ألسنة المفترين.

* * *

ثالثا: يزيد ووقعة الحرّة(١)

ثم نقول لهؤلاء الذين يدّعون الركانة والزكانة، ويتناولون تاريخ أمتنا بروح الشرطي الذي يحقق مع المتهمين، ويجهد نفسه، ويتفنن في أساليبه ووسائله، ليفسر أعمالهم وأقوالهم بما يثبت التهمة عليهم.

نقول لهؤلاء الذين يزعمون (الحياد العلمي) و (الشك المنهجي) و (التجرد من العواصف). .إلى آخر ما ألقمهم إياه المبشرون والمستشرقون، أو تقمموه وسَطَواْ عليه من كلامهم.

نقول لهؤلاء: تعالوا نحتكم إلى المنهج العلمي الصادق حقاً، الذي لا يميل ولا يحيد، لقد ردّدتم كثيراً أن (وقعة الحرة) كانت انتقاماً (قرشياً) من الأنصار، انتقاماً قرشياً، قام به مسلمة الفتح الذين قالوا آمنا، ولم يدخل الإيمان قلوبهم. وظللتم ترددون

---

(١) لم تتعرض لما يقال من أن يزيد أباح المدينة لجنده ثلاثا، فهو خير ساقط، مصدره الوحيد أبومخنف، ومع ذلك ، فهو شائع على أسنة الاقلام، ولنا حوله بحث مستقص، لم ننهض لنشره للآن. وللدكتور حمد محمد العرينان الأستاذ بجامعة الملك عبدالعزيز بحثٌ قيم بعنوان إباحة المدينة، وحريق الكعبة في عهد يزيد - نشرته مكتبة ابن تيمية في الكويت - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

هذه المقولة، حتى باتت باللجاجة والإلحاح بديهة من البديهيات، تبنى عليها قضايا ونظريات، وتستند عليها أحكام ونتائج، من مثل ما بناه (العميد) من انتحال الشعر الجاهلي، فقد زعم أن هذا الصراع بين قريش والأنصار، الذي عاد فتفجر منذ الدولة الأموية، والذي كان الشعر من أمضى أسلحته، جعل كل من أراد أن يظهر على مصارعه، ينتحل شعراً ينسبه إلى أجداده يعدد فيه مآثره، وأمجاده.

ولكن الواقع الثابت ينفي هذا الصراع، ويؤكد أنه وهم لخيال مريض، نعم لخيال مريض بالكيد للإسلام وأهله.

وآية ذلك أن (وقعة الحرة) التي كانت بين جيش الدولة الأموية (ممثل قريش كما زعموا) وأهل المدينة (الذين هم الأنصار) هذه الواقعة سقط فيها من أهل المدينة من مناوئي بني أمية ثلاثمائة وستة من الرجال (٣٠٦).

كان عدد الأنصار منهم مائة وثلاثة وسبعين رجلا (١٧٣) (فيما رواه خليفة بن خياط) فيكون عدد من سقط يومذاك من قريش والمهاجرين مائة وثلاثة وثلاثين رجلا (١٣٣) وهو قريب من النصف، وبالتحديد ٤٣٪ فإذا أضفنا إلى ذلك أن عامة سكان المدينة كانوا من الأنصار، أي يفوق عددهم عدد المهاجرين من قريش، وغير قريش، وإن كنا لا نستطيع أن نحدد نسبة الزيادة بدقة، إلا أننا نستطيع أن نسترشد بالنسبة العددية للذين خرجوا مع الرسول يوم بدر، فقد كان عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، كما هو المشهور (٣١٤). كان فيهم «من المهاجرين الأولين من قريش ومواليهم - في عدد محمد بن إسحاق ثلاثة وثمانون رجلاً، وفي عدد محمد بن عمر خمسة وثمانون رجلاً» (ابن سعد - الطبقات:٤١٨/٣) وجميع من كان فيهم من الأوس والخزرج مائتان وواحد وثلاثون (٢٣١) في عدد محمد بن إسحاق. (ابن سعد - الطبقات: ٦٠١/٣).

وعلى هذا تكون النسبة المئوية لمن حضر بدراً من قريش هي: ٢٦٪.

وعلى ذلك يكون القتل الذي وقع يوم الحرّة، وقع على قريش بأكثر مما وقع على الأنصار. إذا لاحظنا هذه النسبة العددية بين سكان المدينة:

نسبة عدد السكان	المهاجرون ٢٦٪ الأنصار	القتلى يوم الحرة	المهاجرون٤٣٪ الأنصار ٥٧٪

وقد يقول قائل: إن هذه النسبة العددية، لم تستمر كما هي، حيث كانت غزوة بدر في السنة الثانية، والهجرة ظلت مستمرة حتى السنة الثامنة، عندما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح» فمع تزايد الهجرة واستمرارها زاد عدد المهاجرين.

ونقول: نعم. ولذلك حاولنا أن نحصى عدد من كان في جيش الفتح، فتح مكة، وتعرف نسبة الأنصار إلى المهاجرين، فلم نجد ما يغني لا عند ابن هشام، ولا عند الطبري، ولا عند ابن سعد، ولا عند ابن كثير، بل يكتفون بذكر عدد الجيش جملة واحدة (عشرة آلاف) بدون تمييز بين المهاحرين والأنصار.

ولكن أسعفنا بعد لأي، وطول عناء، ما وجدناه عند الواقدي في مغازيه:٢/ ٨٠٠، وعند المقريزي في إمتاع الأسماع: ١/٣٦٤) قال:

«كان المهاجرون سبعمائة، ومعهم ثلاثمائة فرس = ٧٠٠

وكان الأنصار أربعة آلاف، ومعهم خمسمائة فرس = ٤٠٠٠

وكانت مُزينة ألفاً، فيها مائة فرس، ومائة درع = ١٠٠٠

وكانت أسلم أربعمائة، فيها ثلاثون فرساً = ٤٠٠

وكانت جهينة ثمانمائة، معها خمسون فرساً = ٨٠٠

وكانت بنو كعب بن عمرو خمسمائة» أ. هـ ينصه = ٥٠٠

فالذي يعنينا هنا هو أن النسبة بين المهاجرين والأنصار كانت: ٧٠٠ إلى ٤٠٠٠، وبالنسبة المئوية تكون ١٧,٥ المهاجرون والأنصار ٨٢,٥٪.

فكيف يقال : إن وقعة الحرة كانت وقعة قرشية بالأنصار، انتقاماً (لبدر)؟

كيف يقال هذا، والقتلى من قريش أكثر من قتلى الأنصار؟ (بالنظر إلى النسبة العددية لأهل المدينة).

- ويؤكد فساد هذا القول أمور أخرى منها:

أ - أن قيادة جيش المدينة ومقاتليها كانت في المهاجرين - على قلتهم العددية كما أثبتنا - يروى الطبري بسنده، عن أبي مخنف[1]: «وقد كان أهل المدينة اتخذوا خندقاً

(١) لا غرابة أن ننقل عن أبي مخنف هنا، فها هو رغم شيعيته التي تدعوه للكذب على بني أمية، لم يصل في تزييفه، واجترائه، إلى تصوير المعركة بأنها بين الأنصار، وبني أمية.

في جانب المدينة، ونزله جمعٌ منهم عظيم، وكان عليهم عبدالرحمن بن زهير بن عبد عوف، ابن عم عبدالرحمن بن عوف الزهري، وكان عبدالله بن مطيع الأسدي القرشي على ربع آخر، وكان معقل بن سنان الأشجعي على ربع آخر في جانب المدينة، وكان عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، في أعظم الأرباع، وأكثرها عدداً، وكان هو أمير جماعتهم» (تاريخ الطبري: ٥/٤٨٧).

فها أنت ترى ثلاثة من القواد كانوا من المهاجرين، وفيهم اثنان من قريش خاصة.

ب - بل روى الطبري عن أحمد بن زهير، أن بني حارثة (حي من الأنصار) كان هواهم مع جيش يزيد، قال: «فبينما الناس في قتالهم، إذ سمعوا التكبير من خلفهم في جوف المدينة، وأقحم عليهم بنو حارثة جيشَ الشام، فانهزم الناس، فكان من أصيب في الخندق أكثر من قتل من الناس، فدخلوا المدينة» (تاريخ الطبري: ٥/٤٩٥).

جـ - بل إن عمرا بنَ سعيد بن العاص الأموي، أبى أن يقود الجيش الذاهب إلى المدينة، حتى لا يكون هو الذي يريق دماء قريش أبناء عمومته، ونُصح يزيد أن يختار رجلاً بعيد القرابة منهم، فأرسل مسلمَ بنَ عقبة المري، ذكر ذلك الطبري فيما رواه عن أبي مخنف، إذ قال: «إن أهل المدينة لما بايعوا عبدالله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد بن معاوية.. حصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم، واستطاع بنو أمية من وراء الحصار أن ينفذوا كتابا إلى يزيد بدمشق، كان فيه : أما بعد، فإنه قد حصرنا في دار مروان بن الحكم، ومنعنا الماء، ورمينا بالجبوب «التراب أو الأرض الغليظة»، فيا غوثاه يا غوثاه.. فلما قرأه يزيد قال متمثلاً:

لقد بدّلوا الحلمَ الذي من سجيتي
فبدّلتُ قومي غِلظةً بليان

ثم بعث إلى عمرو بن سعيد، فأقرأه الكتاب، وأمره أن يسير إليهم في الناس «أي يتولى قيادة الجيش الذاهب إليهم» فقال له: **«.. إنما هي دماء قريش تهراق بالصعيد، فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك، يتولاها من هو أبعد منهم مني..»** ا.هـ ملخصا: (٥/٤٨٢، ٤٨٣).

فهذا نص صريح في **أن معركة يزيد مع أهل المدينة كانت مع قريش، وليست انتقاما قرشيا من الأوس والخزرج كما يقول العميد وقبيله.**

د - بل يشهد بأن خروج أهل المدينة على يزيد كان وراءه رءوس قرشية، أن مسلما

قائد جيش يزيد دعا أناساً من خاصة قريش بأعيانهم، وطلب منهم البيعة ليزيد، فلما رأي تردداً ضرب أعناقهم، (ر. الطبري: ٥/٤٩١، ٤٩٢).

أما القول بأن القتلى كان فيهم ثمانون من أهل بدر، فلم أجد له أصلاً فيما رأيته من دواوين التاريخ (لا عند الطبري، ولا عند ابن كثير، ولا عند ابن سعد) وقد تتبعت كاملاً أسماء من شهد بدراً من الأنصار، وعددهم كما سبق (٢٣١) رجلاً وتتبعت وفاتهم، فلم أرَ ابنَ سعد أشار إلى واحد منهم أنه قتل يوم الحرّة. كما تتبعت قتلى يوم الحرّة اسمًا اسمًا، فلم أجد فيهم بدريًا واحداً بيقين.

نخلص من ذلك أن القول «بأن معركة الحرّة» كانت ثأراً بدرياً من قريش، قام به يزيد بن معاوية تأسيًا بعصبية جده أبي سفيان وجدته هند» **هذا القول ليس دعوى بغير دليل فقط، وإنما هو امتهان لكرامة المنهج وقواعد البحث، وآيةٌ لسطو عربان على أقوال المبشرين والمستشرقين، خضوعاً لسلطانهم وانبهاراً بأعمالهم.**

* * *

مناهج التعليم ثانية:

ولست أدري العلاقة بين أصداء أحد في قصر الخلافة بدمشق، وعبث يزيد برأس الحسين السبط الحبيب، وأسف الدكتورة الجليلة، على (قصور مناهج تعليمنا)!! هل تريد لهذه الصور وأمثالها أن تجد طريقها إلى مناهج تعليمنا؟ أعتقد جازماً أنها لا تريد هذا!! (هذا على فرض صحة ما قيل).

إن الأمم الواعية تعرف كيف تقرأ تاريخها، فالتاريخ ليس علم الماضي، بل هو علم الحاضر والمستقبل، والأمم تهرع دائماً إلى تاريخها تستمد منه زاداً لمستقبلها، وعماداً لبنائها وكينونتها ووجودها، والتاريخ الإسلامي هو الإسلام مطبقاً واقعاً، فتشويهه تشويه للإسلام نفسه، وإثبات لعجزه وفشله عند التطبيق، ولا ينجينا من ذلك تلك المحاولة الصبيانية التي يقول بها البعض، بأن هناك فرقاً بين المسلمين والإسلام، وأن الإسلام يحكم على المسلمين، ويحاكمون إليه، وليس العكس، فهذا الكلام على وجاهته شكلاً منقوض ببديهة العقل، أعني أنه إذا عجز صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين أثنى عليهم القرآن الكريم في آيات عدة، والتابعين لهم بإحسان الذين أثنى عليهم القرآن أيضاً. إذا عجز الصحابة والتابعون، فنحن أعجز بداهة، لا نقاش في ذلك.

إن مناهج تعليمنا بما هي عليه قضت على النموذج الرائع لحركة الأمة بالإسلام، وحركة الإسلام بالأمة، وعلى الصورة المثلى التي ارتادت بها أمتنا الطريق للبشرية أكثر من ألف عام. هل تريد هذه المناهج ضغثا على إباله.

إن مناهجنا التعليمية تتبعت الأخطاء والخطايا وحدها، فركزتها في بؤرة الشعور لدى أبنائنا وشبابنا، فتشكل وجدانهم بطوفان من البغض والاحتقار لتاريخهم ولآبائهم وأسلافهم، مما يحملهم على التبرؤ منه والسخرية به، وذلك حتى يصيروا نباتاً بغير جذور، وبناء بغير أساس، فيسهل اجتثاثهم واستئصالهم، وتدميرهم!!

* * *

تاريخنا وتاريخهم

هل تقول المدارس في المملكة المتحدة لأبنائهم : إن ملكهم المزواج هنري الثامن (حكم من ١٥٠٩ - ١٥٤٧م) الذي كان يلقب في الوقت نفسه بحامي الإيمان الحق - قدّم رشوة للبابا ليتزوج من (كاترين) أرمة أخيه، فضرب البابا بأحكام الكنيسة عُرض الحائط، وزعم أن الأرملة بكر لم تفض، ومن ثم لا حرج عليه أن يعقد عليها الملك هنري الثامن.

ثم بعد أن قضى لبانته منها، حاول أن يرشو البابا ثانية ليأذن له بطلاقها، فرفض البابا، لا ورعاً، ولكن لأنها كانت خالة لفيليب ملكُ أسبانيا - أقوى ملوك أوروبا في ذلك الوقت - وكان يعتبر بحق حامي البابوية، فكان جزاء البابا أن أعلن ملكُ انجلترا انفصال الكنيسة الانجليزية، وخلع طاعة البابا، وانفصل عن الفاتيكان، وأنشأ الكنيسة الأنجليكانية، وأدخل المملكة في دين جديد من أجل أن يتزوج امرأة أخرى.

- وتزوج ١٥٣٣م آن بولين ثم شُنقَت بعد ما حوكمت بتهمة الزنا.

- وتزوج جين سيمور وتوفيت ١٥٣٧م.

- ثم تزوج من آن كليفر ١٥٤٠م فكرهها وطلقها، وأعدم رئيس وزرائه توماس كرومويل بسبب هذه المشكلة.

- ثم تزوج من كاترين هوارد التي أعدمت سنة ١٥٤٢م مثل آن بولين التي حوكمت بسبب الزنا.

- ثم تزوج من كاترين بار ١٥٤٣م.

ثم جاء ابنه ادوارد السادس (حكم من ١٥٤٧ - ١٥٥٣م) (إمعاناً في الاستقلال

عن الكنيسة الكاثوليكية) ففرض البروتستانية صراحة، وبدأ اضطهادَ الكاثوليك، وفرض الصلاة بالإنجليزية، ونشر أول كتاب صلوات بها، وحرّم الصلاة باللاتينية.

أتقول لهم مدارسهم إن ملكتهم (ماري) ابنة (كاترين) طليقة هنري الثامن، حينما اعتلت العرش ١٥٥٣م جعلت أول همها أن تنتقم لأمها، فأعادت الكاثوليكية، وشنقت البروتستانت. فأحدثت فتنة جديدة في صفوف الأمة، التي كانت ترحب بالخروج عن طاعة الفاتيكان والثورة عليه، لوقوف الفاتيكان في صف أسبانيا عدوة انجلترا في ذلك الوقت، وسقط آلاف الضحايا في هذه الفتنة. حتى سميت هذه الملكة في التاريخ باسم: (ماري الدموية).

ثم جاءت اليزابيث الأولى ١٥٦٣م فأعادت البروتستانية رسمياً، وفرضت على الكاثوليك أن يصلّوا بالانجليزية، ويصلّوا مثل البروتستانت.

أتقول مناهج تعليمهم لتلاميذهم: إن دينهم تغير وتبدّل عدة مرات في نحو من سبعين عاماً بسبب النزوات، والجري وراء النساء، والانتقام الشخصي، والمواقف السياسية.

وفرنسا أيضاً:

أتقول مناهج التعليم في فرنسا: إن نابليون العبقري، كان من بين ضباط أركان حربه في حملته على الشرق ضابط يدعى (دوروك) وقد أصبح فيما بعد (الدوق فريول) وهو الرجل الوحيد الذي اعترف بونابرت بأنه عاشره؟

أتقول مناهجهم: إن من أركان حرب نابليون شقيقه لويس الذي أصبح فيما بعد ملكاً على هولنده، قد كان مصاباً بالشذوذ الجنسي وبالزهري؟

هل تقول مناهجهم: إن نابليون الذي ألغى الجمهورية، وأعادها امبراطورية وراثية بعد خمس عشرة سنة من الثورة، واستصدر قانوناً يبيح له تبني أحد أبناء أشقائه ليرث العرش، مادام لم يوجد له وارث من صلبه، أو يورثه لأحد شقيقيه (لويس وجوزيف)؟

أتقول مناهج فرنسا: إن نابليون العظيم انتهب الوظائف والمناصب الكبرى هو وأقاربه على النحو الآتي:

- شقيقه جوزيف بونابرت		وظيفة الناخب الأعظم
- شقيقه لويس بونابرت	،،	الضابط الأعظم (قائد القوات المسلحة)
- ابن زوجته يوجين بورمانيه	،،	حامل أختام الدولة
- جوزيف فيش (أحد عمومة نابليون)	،،	الخوري الأعظم للدولة(حتى الوظائف الدينية)

واستكمالاً للأبهة والعظمة وزع الألقاب والأملاك، ومنحها لكبار الشخصيات، ونال أفراد أسرته منها نصيب الأسد، فمن ذلك:

- شقيقته باولين دوقة جواستالا في إيطاليا.
- شقيقه لويس ملكاً على مملكة هولنده.
- شقيقته إليزا ملكة على إمارة لوفا وتسكانيا.
- زوج شقيقته كارولين دوقية برج وكليف.

أتقول لهم مناهجهم: إن الامبراطور أعاد قانون النبلاء والطبقات، ومنح أسرته وأقاربه الذين لم يكونوا أصلاً من النبلاء، كل ألقاب ومميزات الطبقة، وأنه كان حريصاً على أن يصهر إلى الأسر المالكة ليرفع خسيسته؟

أتقول مناهجهم: إن نابليون حرص على أن يكون من حقه نقض أحكام القضاء، ونص على ذلك في الدستور الذي استحدثه، كما جعل حق الانتخاب للأغنياء فقط؟

أتقول لهم مناهجهم: إن نابليون عبث بتاريخ فرنسا، فمنع نشر كتاب (دراسات في تاريخ فرنسا) لأنه لم يعظم الامبراطور كما كان يتمنى، على حين كا يغدق على من يكتبون التاريخ من وجهة نظره هو مثل كتاب (الموجز التاريخي)؟

أتقول لهم مناهجهم: إن (شاتوبريان) و (مدام دي ستال) وهما من أعظم كتاب فرنسا، كانا من ضحايا نابليون؟؟ وعاشا مشردين هاربين!!

أتقول لهم مناهجهم: إن نابليون العظيم من أجل وريث للعرش طلق زوجته جوزفين، وتزوج من الأرشيدوقة (ماري لويزا) ابنة امبراطور النمسا، وظن أن هذه المصاهرة سترفع من البيت البونابرتي الذي أسس على أنقاض الأسرة الملكية بحق (البوربون) وكان طلاق جوزفين مدنيا، لم يوافق عليه البابا، فكان عقاب البابا أن أعلن نابليون أن الدولة البابوية (حكومة روما) جزء لا يتجزأ عن فرنسا، وأن مدينة روما هي المدينة الثانية في الامبراطورية الفرنسية.

ونكاية في البابا، أو زيادة في النكاية لقّب وليَّ عهده (الذي لم يكن ولد بعد) ملك روما.

ولما امتنع ثلاثة عشر كاردينالا عن المشاركة في مراسيم زواج الامبراطور من

(ماري لويزا) ، باعتباره غير شرعي حيث لم تعترف الكنيسة بطلاق (جوزفين) ـ كان جزاء هؤلاء الكرادلة النفي، ومصادرة الأموال، وحرمانهم من ارتداء لباس الكرادلة.

ولم يقف استبداد وفساد نابليون العظيم عند هذا الحد، فقد جرّ بلاده إلى مغامرة عسكرية في حرب روسيا، حرق فيها مدينة موسكو، ونسف الكرملين، وخرّب ودمر، ولكن الجيش عاد حزيناً بعد أن فقد نحو مائة ألف جندي، وفي تقدير آخر خمسمائة ألف، وفقد كل الخيول، ومعظم المدافع والعتاد.

هذا طرف فقط من فساد وعار (نابليون) عبقرية فرنسا وفخرها.

إن ما فعله نابليون، لو جرت قطرة منه في بحر تاريخنا الطاهر، لدنّسته، وسوّدته..ومع ذلك أستطاعت فرنسا أن تجد في تاريخ نابليون ما تفخر به، وتقدمه لأبنائها.

وروسيا أيضاً:

هل تقول مناهجهم: ما رواه رحالتنا الفقيه ابن فضلان عن بلادهم، وهل يدرسون لأبنائهم «أن أجدادهم كانوا يجتمعون على السكنى في بيت واحد، عشرة أو عشرون، ولكل منهم سرير يجلس عليه، وحياتهم الزوجية مكشوفة لا حياء فيها ولا عار، على قذارة في الثياب والأبدان، فهم يغسلون وجوههم في طست واحد، يطاف عليهم به يرسلون فيه ما يخرج من أفواههم وأنوفهم، وهم أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من طعام» (رسالة ابن فضلان: ١٥١) وضربنا صفحاً عن أشياء بشعة يقبح ذكرها، ونطهرّ سنّ قلمنا عن أن تجري عليه.

* * *

فلماذا تاريخنا وحده؟:

لماذا نحن وحدنا الذين نَعْرض تاريخنا بهذه الصورة الشوهاء الممزقة؟!

لماذا أطلنا الوقوف عند مقتل عثمان، ثم (الجمل) و (صفين)، و(مهزلة التحكيم) و (هرقلية معاوية) و (كلاب يزيد وقروده) و(كربلاء) و (الحرّة) و (ضرب الكعبة بالمنجنيق) و (الحجاج) و (دير الجماجم)، ثم (السفاح) و(هارون الرشيد ولياليه)، ثم (الطوائف في الأندلس) و (الترف والفساد) ثم (الظلام التركي) و(الجهل المملوكي). (مع ما في كل ذلك من أكاذيب وافتراءات).

أما قرن الاستعمار الذي ديست فيه ديار الإسلام بأحذية العدو الثقيلة، فهو بدء النهضة، وعصر التنوير!!

* * *

لماذا تاريخ الإسلام وحده يعرض بهذه الصورة؟ أليست هذه الصورة من معطيات مناهجنا؟ ومن ثمارها؟؟

أيراد لنا أن نضيف إليها عبث يزيد برأس الحسين (رضي الله عنه) وتمثله بشعر ابن الزبعري.

أما كفانا ما نحن فيه؟

وأنت أيتها الأستاذ الجليلة صاحبة الحديث عن الصفقة المرفوضة، وصاحبة النظرة البصيرة في نقد مؤرخينا الذين «أطالوا الوقوف أمام سنوات الحكم العثماني في فترة اختصاره، وسجلوا ذلك بالتفصيل في كتب تاريخنا، ولم يخطر على بالهم فيما عرضوه من وحشية الولاة الأتراك، أن يقارنوها بمدنية معاصريهم من تجار الأفيون، وساحقي الشعوب، ولصوص الأوطان».

* * *

هل نريد إخفاء الحقائق عن أبنائنا؟؟

أؤكد أنه لا يمكن أن يرد بخاطر باحث واع أن يحجب شيئاً من (الحقائق) مهما كانت، فإخفاء بعض (الحقائق) تزييف، لا يقل بشاعة عن اختراع أكاذيب وافتراء أحداث.

ولكن ما نريده هو:

أولاً: الالتزام بالحقائق بمعنى أنه لابد من المنهج الصارم للتحفظ على أهواء الرواة ومدوناتهم، ونقدها بالمنهج العلمي الصحيح.

ثانياً: النظر إلى هذه (الحقائق) في الإطار العام للتاريخ، ومنظومة الحقائق والوقائع الأخرى، حتى تقع في مكانها، وتأخذ حجمها وشكلها وقيمتها في السياق العام لحركة التاريخ، فلا يسمح لها أن تحجب غيرها، أو ينفخ فيها، فتصير بحيث تزري بما حولها.

صورة التاريخ:

وعندي مثال أضربه عسى أن يكون فيه، إيضاح ما أريد، ويغنيني عن الإطالة:

الغرض من التاريخ أنه يعطينا صورة صادقة للتعرف على الماضي، وملامحه وقسماته، وهذه الصورة تشبه الصورة الشمسية (بالكاميرا) للتعرف على الأفراد، تثبت الملامح العامة بصدق كما هي، وتكفي تماماً في التعرف على الأشخاص، والتمييز بينهم بدون أدنى خلط، أما حينما يتعلق الأمر بصورة أخرى من صور التعرّف، مثل التعرف على الجواسيس والمجرمين - مثلا - فحينئذ تكون الصورة المطلوبة من عدة جهات، من اليمين ومن اليسار، ومن الأمام ومن الخلف، وللفك والجبهة، والأذن والعنق، ومن قرب قريب، وبدرجات متفاوتة. فهذه الصورة تكون لأجهزة خاصة، من أجهزة مكافحة التجسس، ومقاومة التهريب والجرائم.

وهناك صورة أخرى للأفراد أو لأعضاء من الجسم، تكون أكثر دقة وتفصيلاً، وهي صورة الجسم بالأشعة التي تظهر أحشاءه، ومفاصله، وخفاياه، وهذه أيضا درجات وأنواع، من حيث درجة الدقة والتفصيل، والجزء المراد فحصه.

وهذه الصورة لا يحتاجها إلا الطبيب، ولا يحسن قراءتها إلا الطبيب، بل الطبيب الماهر الحاذق، وليس كل طبيب.

فهذا ما نقوله بالنسبة للتاريخ، هناك الصورة العامة (الصادقة) كل الصدق، للمراحل الأولى في التعليم العام، بدرجات وضوحها، تزداد في الوضوح شيئاً فشيئاً مع تطور السن، والقدرة على الفهم، والإدراك لنوازع النفس البشرية، ومعرفة السنن الكونية في دفع الناس بعضهم ببعض.

وتبقى بقية من التفاصيل لا يدركها إلا طبقة من العلماء، أهل الاختصاص، علماء التاريخ، والفلاسفة، فلاسفة التاريخ، وهذه هي التي لا تترك شاردة ولا واردة، إلا ونظرت فيها، وبحثت عن عللها وأسبابها، وآثارها، وثمارها، وكل ما وراءها.

ذلك - فيما أقدر - هو الذي ينبغي أن يكون الأمر عليه عند النظر في التاريخ، وعند دراسة التاريخ، فذلك هو الذي تقتضيه طبيعة الأمور، وغير ذلك يأباه الواقع، وقدرة البشر عنه عاجزة لا محالة، فمن المستحيل عقلاً وطبعاً أن يحيط المنهج المدرسي بكل التفاصيل ودقائق التاريخ، وهنا يكون حسن الاختيار، وصدق المعيار، أما أن نقول كما قال مؤلفو كتاب الصف الخامس الابتدائي: «إن عمر عزل خالد بن الوليد، لأنه قتل مالك بن نويرة، ليتزوج من امرأته» وذلك ضمن عشرة أسطر كتبت عن الفتوح الإسلامية، فما أظن هذا إلا من أخطر ألوان التزييف.

خاتمــة وخلاصــة

نخلص من هذا إلى ما يأتي:

١ - إن يزيد كان صالحاً للإمامة ، مستصلحاً لها ، (وإن لم يكن أفضل الصالحين بلاشك).

٢ - إن مأساة الحسين السبط الحبيب (بأبي هو وأمي) جرت وفق اتفاقات ردّية (بتعبير المؤرخين القدماء) ولم تكن عن تدبيرٍ وقصد وأن يزيد بريء منها ، مع ذلك.

٣ - إن خبر عبث يزيد برأس الحسين، وتمثله بشعر ابن الزبعرى، باطلٌ لا أصل له.

٤ - إن التشكيك في دين يزيد، وبني أمية، ومسلمة الفتح، هو تشكيك في عامة المسلمين، وفي رجال القرن الأول خير القرون، ثم إنه حكم باطل لا دليل عليه، ولا أصل له.

٥ - إن الإخباريين الذين روّجوا فسق يزيد ولهوه، غضوا الطرف عن أخبارٍ أثبت وأصح عن كفاءته، وقدرته، بل وصلاحه وتقواه.

٦ - إن بديهة العقل تشهد بغير ما قيل عن يزيد وبني أمية عامة، وإلا ما قامت لهم دولة نحو مائة سنة، امتدت حتى شملت المعمور كله تقريباً، فالدول - حسب القانون الطبيعي - لا تقوم إلا بالعدل، ورضي الله عن شيخ الإسلام بن تيمية: «إن الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ويهدم الدولة الظالمة، ولو كانت مسلمة».

٧ - أن معركة الحرّة لم تكن ثأراً ليوم بدر، كما يردد الببغاوات نقلاً عن تحليلات المستشرقين.

٨ - كنت أتمنى أن أقول مع عمر بن عبدالعزيز: تلك دماءٌ طهر الله منها أيدينا ، فلا نلوث بها ألسنتنا ، ولكن قدرنا أن نتعرض لهذا الغزو الثقافي المستفز، الذي يتعرّض لتاريخنا في كل يومٍ، ركلا وصفعاً، وجلداً وتمزيقاً، والله المستعان على كل بليّة.

* * *

لماذا هذا العناء؟

الأستاذة الجليلة: ما كان لي أن أعنِّي نفسي، وأعنيك معي بهذا البحث والتدقيق، لولا أنني أعلم أولاً أن كلمتك مسموعة في الناس، ومعتمدة من الباحثين الأصلاء، لما هو معلوم من أنك من رءوس التحقيق، والتدقيق، وقبل ذلك كله من أهل الديانة والصيانة.

وثانياً: أعلم أنك من أهل العلم الذين يعرفون للعلم حرمته، وللمراجعة والمباحثة حقها وقدرها ، ويدينون بمنهج أئمتنا : «قولي صواب يحتمل الخطأ».

ولستِ من نابتة العصر ـ أعاذك الله ـ الذين يصعِّرون خدودهم، ويزعمون أن عندهم

علم الأولين والآخرين، وأنهم لا يخطئون.

وثالثاً: بيني وبينك من الصلات والرحم ما يجعلني أنشد الكمال لكل ما تكتبين.

وأخيراً:

يعلم الله أني إلى الحق أردت، وإلى وجهه سبحانه قصدت، ولذا أتقدم إليك راجياً أن تصوبي هذا الذي كان، بالألمعية المعروفة، والمهارة المشهودة، من غير ذكرٍ لمراجعة مَنْ راجع، ولا لمرادّة مَنْ ردّ وأختم داعياً لك بأن يديم الله أيامك، ويحرس من غِيرَ الأيام مهجتك، ولا زلت بالتأييد محظوظة، وبكلاءة الله ملحوظة، في رغدٍ وعافية، ولحظات الحادثات عنك غافية.

والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير.

وكتب

أبومحمود عبدالعظيم محمود الديب

الدوحة فجر الحادي والعشرين من ذي الحجة ١٤١٤هـ